السياق (البيئة)

العرب والإسرائيليون والقوى العظمى، ١٩٤٨-١٩٦٦

في الواحد والثلاثين من ديسمبر (كانون أول من العام ١٩٦٤ ليلاً، تقوم مجموعة من الفدائيين الفلسطينين بعبور لبنان إلى شمال إسرائيل. تقدمت إلى هدفها مزوَّدة بأسلحة سوفياتية، ويرتدي أفرادها زيّاً قدمته لهم سوريا. كان هدف هذه المجموعة هو مضخة لتزويد صحراء النقب بمياه الجليل. يعد هذا الهدف متواضعاً بيد أن غاية الفلسطينين كبيرة. إذ كان أعضاء فتح (ومعناها الفتح العسكري، كما أنها كلمة مشكلة من الأحرف الأولى لاسم المنظمة الفلسطينية «حركة التحرير الوطني الفلسطيني -حـ ت ف- بصورة عكسية فصارت ف ت ح أي «فتح») كان أعضاء هذه الحركة المقاتلة يرغبون في حسم الأمر في الشرق الأوسط. إذ كان يراودهم أمل في أن عمليتهم هذه سوف تدفع بإسرائيل إلى القيام بعمل انتقامي ضد إحدى الدول العربية المجاورة لها -كلبنان نفسها، أو الأردن- مثيرة بذلك تحركاً عربياً عسكرياً يطيح بالدولة الصهونية.

لقد انتهت عملية فتح البكر هذه بالإخفاق التام. إذ لم تنفجر العبوات الناسفة التي زرعوها. ثم ألقت الشرطة اللبنانية القبض على الفدائيين أثناء خروجهم من إسرائيل عائدين إلى قواعدهم. ومع ذلك أعلن زعيم فتح الشاب المهندس سابقاً البالغ من العمر الخامسة والثلاثين من غزة واسمه ياسر عرفات، بيان ظفر يدق ناقوس «واجب الجهاد و... أحلام الثوريين العرب من المحيط الأطلسي إلى الخليج».(١)

ما كان لأحد إلا ذي مخيلة رائدة فريدة أن يتصور أن مثل هذا العمل التخريبي الضيق النطاق، حتى ولو نجح، أن يطلق شرارة حرب ينخرط فيها أناس كثيرون ومعدات وأسلحة كثيرة، حربٍ تغير مسار تاريخ الشرق الأوسط، بل تحدث تغييرات كثيرة في العالم. ومع ذلك كانت عملية فتح هذه تتضمن عدداً من النقاط التي توحي بأن حرباً كهذه سوف تنشب في غضون أقل من ثلاث سنين. كان هناك بالطبع البعد الفلسطيني، الذي يعد مسألة متفجرة معقدة ومصدر قلق وإزعاج للدول العربية وإسرائيل على حد سواء.

كان هناك إرهاب تدعمه سوريا التي تتلقى دعماً بدورها من السوفيات.

وكان هناك ماء. إذ ربما تدور الحرب حول الماء وبسببه أكثر من أي سبب فردي آخر.

ومع ذلك يعد القول إن عملية فتح الأولى هذه أو أية هجمات أخرى لاحقة هي التي فجرت حرب الشرق الأوسط، ساذجاً وقَدَرِيّاً.

قال إيان ماك إيوان (Ian McEwan) في روايته «الحب الراسخ»: «البداية، وسيلة بارعة، ولكن الذي يرجح أمراً على سواه هو مقدار فهم ما سيأتي». تطبق هذه الملاحظة على التاريخ أيضاً حيث تكون محاولات التعرف على الأسباب الأساسية عشوائية في أحسن الأحوال، وعبثية في أسوئها. إذ يمكن للمرء أن يبدأ بسهولة بأول مستوطنة صهيونية في فلسطين، أو بالسياسة البريطانية في فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى؛ أو بنشوء حركة القومية العربية، أو بالمحرقة (الهولوكوست). الخيارات كثيرة ومتساوية في إمكانية كونها أسباباً أولية.

في حين أنه من العبث محاولة تحديد السبب أو الأسباب التي أدت إلى نشوب حرب الـ ٦٧ في الشرق الأوسط، فإنه يمكن وصف السياق أو المحيط الذي أصبحت فيه الحرب ممكنة الوقوع. ومثل ذلك كمثل الفراشة التي تحدث بخفقان أجنحتها تيارات ربما تولد عاصفة، كذلك ربما تولد أحداث تبدو تافهة شرارة تؤدي إلى جائحة في غير وقتها. وكما تحتاج الفراشة إلى بيئة وقرائن- كالجو الأرضي

والجاذبية وقوانين الديناميكا الحرارية - كي تولد العاصفة، كذلك الأحداث التي سبقت حرب يونيو للعام ١٩٦٧ تتطلب ظروفاً نوعية كي تسرِّع نشوب الحرب. كانت بيئة الحرب هي بيئة الشرق الأوسط في فترة ما بعد الاستعمار، منطقة مزّقتها النزاعات المريرة الضروس وتدخلات القوى العظمى والإثارة المستمرة لما أصبح يعرف بالصراع العربي الصهوني.

ابتداع البيئة

لا بد من نقطة انطلاق، حتى لبحث البيئة، وهو اختيار عشوائي.

فلنبدأ بالصهونية، حركة الشعب اليهودي لبناء كيان سياسي مستقل لهم في وطنهم التاريخي إن إدخال الصهيونية إلى دوامة سياسات الشرق الأوسط أثار بيئة كانت في الأصل غير مستقرة وأدخلها في إطار حرب إقليمية. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو بسيطاً وسهلاً، فإنه لولا الصهونية لما وجدت إسرائيل، ولولا إسرائيل لما كانت بيئة الصراع الشامل هذه.

إن ما بدأ كمجرد فكرة في منتصف القرن التاسع عشر، وقد حفَّزَ في مطلع القرن العشرين آلاف اليهود الأوربيين والشرق أوسطيين على ترك بيوتهم للإقامة في فلسطين البعيدة بصورة لا يمكن تصورها. يكمن سر الصهونية في مزاوجتها بين المفاهيم القومية الحديثة وربط الألفية الصوفية اليهودية بأرض إسرائيل، تلك هي القوة التي حافظت على المجتمع اليهودي في فلسطين خلال ما جرى من سلب في العهد العثماني، وخلال الحرب العالمية الثانية عندما طرد العديد من الزعماء اليهود بوصفهم أعداء وغرباء (ومعظمهم من اليهود الروس). وبنهاية الحرب حل الإنكليز محل الأتراك في فلسطين، ووعدوا بموجب تصريح بلفور ببناء وطن قومي يهودي في البلاد، تعاظم المجتمع اليهودي في ظل الانتداب البريطاني إذ تدفق إليه اللاجئون اليهود من اللاسامية الأوربية -أولاً من بولندا، ثم من ألمانيا- وأقاموا مؤسسات اجتماعية تربوية في زمن قصير فاق تلك المؤسسات التي أقامتها

بريطانيا. وبحلول أربعينيات القرن العشرين أصبح المجتمع اليهودي (اليشوف) مصدر طاقة دينامية، إبداعيّة، وإيديولوجية، وتعددية سياسية في عملية تشكيل المنطقة. وباتباع النماذج الغربية والأوربية، استطاع يهود فلسطين إيجاد وسائل جديدة للاستيطان الزراعي (المستعمرات الاشتراكية المشاعية kibbutz) -كبيوتز- والمستعمرات التعاونية (moshav - موشاف) الذي يعد اقتصاداً اشتراكيا قابلاً للحياة ذا أنظمة للصحة القومية، والتحريج، وتنمية البنية التحتية، والجامعات المحترمة، والأوركسترا السمفونية -والجيش الشعبي السري- الهاغناه (Haganah)(٢) لحماية المستعمرات. وعلى الرغم من أن البريطانيين أخذوا بالتخلي عن دعمهم للوطن القومي اليهودي، فإن ذلك الوطن قد أصبح حقيقة واقعة: دولة بدائية آخذة في التبرعم والازدهار.

وهذا ما نفر منه العرب الفلسطينيون. إذ اعتبر العرب ذوو الجذور العميقة منذ قرون في فلسطين ويشكلون الغالبية العظمى من السكان أن المجتمع اليهودي أداة من أدوات الامبريالية الغريبة عن ثقافتهم ومُنافٍ لطريقة حياتهم التقليدية وضارّ بها، وعلى الرغم من أن الإسلام كان دائماً متسامحاً مع اليهود، ولو بوضعية أدنى، فإن تلك الحماية لم تعط اليهود الحق للسيطرة على جزء من قلب الأرض الإسلامية أو لحكم المسلمين.

ولم يكن الفلسطينيون بأقل من نظرائهم المتدينين الخاضعين للحكم الفرنسي في سوريا وشمال إفريقية، أو للحكم البريطاني في العراق ومصر، مطالبة بالاستقلال وسعيا لتحقيقه. فقد تلقوا هم كذلك وعداً من بريطانيا بالاستقلال، وأخذوا يطالبون بتنفيذ هذا الوعد(٣). أما أن يستقلوا تحت السيادة اليهودية، فلم يكن مقبولاً لديهم أبداً، بل كان ذلك في نظرهم شكلاً معيناً من أشكال الاستعمار.

وهكذا كانت كل موجة من المهاجرين اليهود إلى فلسطين -في الأعوام ١٩٢٠-١٦٢١-١٩٣٩ تثير رد فعل عنيف عند العرب بلغ ذروته في الثورة العربية عام ١٩٣٦ ضد اليهود والبريطانيين معاً. استمر العصيان والتمرد ثلاث سنوات وأسفر عن إبعاد الكثير من القيادات الفلسطينية العربية وإضعاف اقتصاد العرب. وبالعكس، تعاظمت قوة المجتمع اليهودي. ومع ذلك. حرم اليهود من النصر. إذ أصدرت

بريطانيا كتاباً أبيض ألغى عمليا وعد بلفور، وذلك تحسباً من قيام المسلمين بحركة عنيفة مفاجئة ضد بريطانيا في جميع أنحاء الإمبراطورية. وبعد ذلك بوقت قصير نشبت الحرب العالمية الثانية وأعلن الزعيم الصهيوني ديفيد بن غوريون عن عزم حركته «محاربة الكتاب الأبيض وكأنه لا توجد حرب عالمية، وأن يخوض الحرب وكأنه لا يوجد كتاب أبيض». وبالمقابل ألقى الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين المعين من قبل البريطانيين والذي ادعى من تلقاء نفسه أنه يمثل العرب الفلسطينيين وضع مصيره في يد هتلر. (٤)

وكان للثورة العربية من العام ١٩٣٦-إلى العام ١٩٣٩ نتيجة مصيرية أكبر. فإذا ما كان الصراع سابقاً بين اليهود والعرب في فلسطين، فإنه اليوم صراع بين الصهيونيين والعرب في كل مكان. لقد أثارت القضية الفلسطنية تعاطفاً كبيراً في جميع أنحاء الوطن العربي حيث كانت تترعرع الروح القومية الجديدة وتزدهر. وادعت القومية العربية التي كانت أيضاً من نتاج الفكر الأوربي الحديث، بوجود شعب عربي واحد تتجاوز هويته الروابط العرقية والدينية والعائلية. دعي ذلك الشعب الآن لكي ينتقم من قرون ثلاثة من الإذلال على يد الغرب، وإزالة الحدود المصطنعة (بين سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق) التي رسمها الاستعمار.

وعلى الرغم من أن حلم إقامة دولة عربية مستقلة تمتد من جبال طوروس (Taurus Mountains) في الشمال إلى المحيط الأطلسي في الغرب، ومن الخليج العربي إلى طرف شبه الجزيرة العربية، سيظل حلماً، إلا أن ظهور عالم عربي تربطه العواطف والثقافة قد أصبح حقيقة واقعية(٥). فمنذ أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كان أيُّ حدث يقع في فلسطين يولد اضطراباً وتمرداً في بغداد والقاهرة وحمص وتونس والدار البيضاء.

ولم يكن يدرك هذا النهج بصورة أفضل أو يخشاه أكثر من زعماء العرب في ذلك الحين. وبسبب الافتقار إلى أيَّة شرعية دستورية كانت التشكيلة القيادية: رؤساء وزارات، وملوك، وسلاطين، وأمراء تعارض التعبير الحر وحساسة لتدفق الرأي الجماهيري - أي تحرك «الشارع» العربي. لذلك كانت مهمة القادة العرب أن يدركوا

مسبقا السبيل الذي يسير في الشارع ويناور، كي يكونوا هم في طليعته. كان الشارع مناهضاً بعنف للصهيونية. واستجابة لذلك الغضب العارم، وبسبب التنافس بين القادة العرب الذي قيد حركتهم، زينت الأنظمة العربية نفسها بفلسطين، فلم يعد الصراع محلياً أبداً.

وفي تلك الأثناء، اغتنم البريطانيون بدهاء حياد الصهيونية في أثناء الحرب، لتهدئة العرب واسترضائهم فرعوا إنشاء جامعة عربية يمكن لأعضائها أن يظهروا وحدتهم ويحتفظوا في الوقت نفسه باستقلاليتهم. (٦)

ولكن، عندما تأكد النصر في أوربا عاد الصهاينة للانتقام فأعلن الصهيونيون الحرب على الانتداب، يحفزهم على ذلك استمرار وجود الكتاب الأبيض.

ويلهبهم الهولوكوست الذي لولا الكتاب الأبيض لما ذهب ستة ملايين من اليهود ضحية للهولوكوست، وأول من أعلن الحرب على الانتداب ميليشيات الإرغون (IRGUN) اليمينية برعاية مناحم بيغن (MENACHEM BEGIN)، ثم تبعه التيار العام الهاغناه (HAGANAH).

وبحلول العام ١٩٤٧ كانت بريطانيا المنهكة من الحرب والتي يطاردها رئيس أمريكي هو هاري ترومان (HARRY TRUMAN) الملتزم علناً بالقضية الصهيونية، على استعداد لتسليم القضية الفلسطينية إلى الولايات المتحدة وجاءت المحصلة بصدور القرار ١٨١ عن الجمعية العامة للأمم المتحدة الذي ينص على تقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة عربية وأخرى يهودية وإقامة نظام دولي للقدس. وافق الصهيونيون على القرار، بينما رفضه العرب الذين كانوا قد رفضوا عرضاً سابقاً أفضل منه قدمته بريطانيا وأصروا على وجوب فرض سيادتهم على كل فلسطين.

في الثلاثين من نوفمبر (تشرين الثاني) من العام ١٩٤٧، أي في اليوم الثاني لصدور قرار التقسيم، قام الفدائيون الفلسطينيون بمهاجمة المستعمرات اليهودية في جميع أنحاء فلسطين وقطعوا الطرق الواصلة فيما بينها. أما رد الصهيونيين

فكان ضبط النفس كيلا تعتقد الأمم المتحدة إذا ما تصاعد العنف في فلسطين أن قرار التقسيم لا يجدي. ولكن المقاومة الفلسطينية أثبتت فعاليتها القوية، الأمر الذي جعل اليهود يبدؤون بالقتال في إبريل (نيسان) من العام ١٩٤٨. ونجحوا في فتح الطرق وإنقاذ المستعمرات (المستوطنات) ولكن الرد اليهودي عجَّل بفرار المدنيين الفلسطينيين الذي بدأ في نوفمبر (تشرين ثاني).

وبدافع من التقارير التي نشرت عن مذابح حلت بالقرى الفلسطينية، مثل مذبحة دير ياسين قرب القدس هرب أو طرد من الفلسطينين ما بين (٦٥٠,٠٠٠) إلى (٧٥٠,٠٠٠) إلى البلدان العربية المجاورة. وكان معظمهم يتوقع العودة في المستقبل القريب، بعد تدخل القوات العربية المشتركة وطرد الغاصبين الصهاينة. كان لا بد من بذل محاولات قاسية لمنع مثل هذا التدخل. فسعى الزعماء اليهود سراً للتوصل إلى تسوية مؤقتة مع الملك عبد الله ملك المملكة الأردنية الهاشمية تقوم على تخوف الطرفين المشترك من الوطنية الفلسطينية. لم تكن وزارة الخارجية للولايات المتحدة مفتونة بالحلم الصهيوني وكانت معارضة بعمق للتقسيم وكانت تسعى لوضع فلسطين تحت وصاية دولية. وطرحت اقتراحات بإقامة دولة عربية يهودية ثنائية القومية، أو إقامة فيدرالية عربية يتمتع فيها اليهود بحكم ذاتي محلي(٧). لم ينجح أيٌّ من هذه الاقتراحات، وعندما انتهى الانتداب في ١٤ مايو (أيار) كانت الدولة اليهودية قد أعلنت. منذ ذلك الحين أصبح اليهود إسرائيليين، في حين أصبح الفلسطينيون مجرد فلسطينيين.

وفي ذلك اليوم نفسه تفجر الصراع المدني الذي نشب منذ نوفمبر (تشرين الثاني) إلى صدام إقليمي بين إسرائيل والدول العربية الخمس الأقرب إليها. وقاد الغزو أشد الدول العربية مناهضة للصهيونيين، سوريا والعراق، وتبعتها لبنان وشرق الأردن.

ولم تستطع مصر مقاومة ذلك الزخم، وخوفاً من أن تتوسع الدول العربية الأخرى، فسارعت إلى الالتحاق بهذه الدول. زحف آلاف الجنود المعززين بقاذفات القنابل والمقاتلات والمدرعات إلى ما وصف بعنجهية بأنه «عمل بوليسي».

نجح ذلك العمل في دفع الدولة الوليدة إلى وضعية الدفاع العميقة عندما اخترقت الجيوش العربية النقب والجليل ووصلت إلى مشارف تل أبيب، أكبر مدينة في إسرائيل. وحوصر الـ (١٠٠,٠٠٠) يهودي في القدس حصاراً وحشياً ومع ذلك لم يتطرق اليأس إلى بن غوريون. فاستغل ذلك الرجل القصير المهيب الحالم المعجب بالقوة إعجاباً براغماتياً، الهدنات التي عقدت بوساطة الأمم المتحدة لإعادة تسليح قواته وتنشطيها. لقد قلبت تلك الميزة، بالإضافة إلى افتقار العرب الفاضح للقيادة والانضباط، التيار رأساً على عقب.

وبحلول خريف العام ١٩٤٨ كانت قوات الدفاع الإسرائيلية (IDF) حديثة التشكيل قد أفلحت في كسر الحصار العربي على القدس ومحاربة الفيلق العربي الأردني بقيادة بريطانية، والنجاح في تجميده، إن لم يكن في الانتصار عليه. كما أحرجت التقدمات السورية في الشمال والتغلغل العراقي في الوسط. بيد أن قوة إسرائيل المسلحة العظمى فقط وُجّهت إلى مصر، حيث أكبر فرقة عسكرية عربية. فطرد الجنود المصريون من جوار القدس وتل أبيب إلى خارج النقب كله سوى جيب صغير من الرجال. وبقي هؤلاء حتى مطلع العام ١٩٤٩ عندما سعت مصر إلى عقد هدنة.

انتهت حرب الاستقلال، كما يسميها الإسرائيليون. واسولت الدولة اليهودية على٣٠٪ من المناطق أكثر مما خصصت لها الأمم المتحدة بموجب قرار التقسيم، وبفضل خروج الفلسطينين أصبحت الدولة ذات أكثرية يهودية صلبة. ولم يردع قوات الدفاع الإسرائيلية عن احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة سوى الخوف من فقدان هذه الأكثرية وإغضاب بريطانيا حامية مصر والأردن، ودفعها إلى خوض حرب ضد الدولة اليهودية.

وفي آخر عملية قامت بها إسرائيل في مارس (آذار) من العام ١٩٤٤ بعد عقد الهدنة مع الأردن هي احتلال أم رشراش (UMMAL-RASHRASH) على البحر الأحمر، وهي منطقة كانت من حصة إسرائيل بموجب التقسيم.

وكان هذا الميناء الذي أعيدت تسميته فأصبح يعرف بإيلات (EILAT) شريان الحياة لإسرائيل عبر خليج العقبة ومضائق تيران، وإلى أسواق إفريقية وآسيا.

وخلافاً لما بدى أنه احتمال يقرب من المستحيل، أحرز القادة الشباب مثل إيغال آلون (YIGAL ALLUN) وإسحق رابين (YIZHAK RABIN) نصراً استثنائياً، ولكن بثمن باهظ. إذ قتل ستة آلاف يهودي -أي ١٪ من الشعب- وقصفت قرى عديدة ودمّر معظمها. وعلى الرغم من الهجمات المتكررة التي قامت بها قوات الدفاع الإسرائيلية على مدينة القدس، فإن هذه المدينة ظلت مع الهاشميين بالإضافة إلى ممر اللطرون (LUTRUR) المؤدي إليها. كما اجتث الفيلق العربي مستعمرات كتلة عتسيون (ETZION BLOCK) الواقعة خارج بيت لحم واحتل الضفة الغربية لنهر الأردن. وكانت غالبية سكان إسرائيل ومراكزها الصناعية تقع ضمن مدى مدفعية هذا الجيش العربي أو ذاك. وكان عرض إسرائيل في أضيق نقاطها تسعة كليو مترات فقط بحيث يسهل شطرها إلى قسمين باندفاع أردني أو عراقي من الشرق ولا مفر لليهود عندئذ سوى البحر.

لقد فاقمت غنائم النصر المختلطة جرح التاريخ اليهودي الكلي، وولدت ازدواجية متناقضة في إسرائيل: ثقة مفرطة بأنها لا تقهر جنبا إلى جنب مع الإحاس المتضخم بمصيرها. فكانت تصور نفسها عند الغرب بأن الإسرائيليين ليسوا سوى نسخ من داوود ضعيف التسلح يقاتلون العمالقة الفلسطينيين؛ وتصور نفسها عند العرب بأنهم غولاثيين (Golathians) يتمتعون بقوة لا يمكن تقديرها. وفي أول زيارة يقوم بها رئيس أركان جيش الدفاع الإسرائيلي موشيه ديان (MOSHE DAYAN) إلى الولايات المتحدة في نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٥٣ قال للمسؤولين في البنتاغون: إن إسرائيل واجهت خطراً مميتاً، ولكنها في الوقت نفسه استطاعت سحق الجيوش العربية مجتمعة في أسابيع. (٨)

لم يصب العرب بوباء هذا التناقض على أية حال. فكانت حرب الـ ٤٨ تعد «نكبة» عندهم لا يمكن تخفيفها أو تلطيفها. إن استعراضات النصر التي كانت تقام

في القاهرة ودمشق لم تستطع إخفاء حقيقة أن العرب قد فشلوا في أول امتحان بعد مرحلة الاستعمار. وكان ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن (جعل الدولة تسقط عبارة «عبر/ شرق» لتصبح المملكة الأردنية الهاشمية) واحتلال مصر لغزة أكد خسارة الفلسطينين للدولة التي كان من المفروض أن تضم هاتين المنطقتين. كما أن هزيمة العرب على يد جيش صغير كان محتقراً في نظرهم، ضاعف من إذلالهم(٩) لم تستطع تلك الهزيمة أن تولد أبطالاً بل ولدت مرارة في نفوس الجنود من أمثال جمال عبد الناصر أحد الضباط الشباب الذين حوصروا في جيب النقب، الذي أخذ يسعى الآن للانتقام ليس من إسرائيل فقط بل من الحكام العرب العاجزين الذين أذلتهم إسرائيل.

openkandl.com

السلام المستحيل

كان لاتفاقات الهدنة العامة (GAA) التي وقعتها إسرائيل مع أعدائها المجاورين الأربعة: مصر والأردن ولبنان وسوريا، على التوالي في النصف الأول من العام ١٩٤٩أثر عميق على العلاقات العربية الإسرائيلية خلال السنوات التسع عشرة التالية.

وبموجب النصوص الغامضة لهذه الاتفاقيات، كان أحد الفريقين، وهو الفريق العربي، يدَّعي أن له حقاً كاملاً في القتال واستئناف الأنشطة القتالية عندما يرغب، وحرم الطرف الثاني، وهو إسرائيل، من أي شكل من أشكال الشرعية أو الاعتراف به. تُعَدَّ هذه الاتفاقات كوثائق دبلوماسية فريدة من نوعها. ففي حين أريد لها أن تكون أساساً لسلام دائم في فلسطين، حيثما قال رالف بنش (RALPH BUNCHE) وسيط الأمم المتحدة الذي نال جائزة نوبل على جهوده للتوصل إلى هذه الاتفاقات، فإن هذه الهدنة أضفت صفة الديمومة على الصراع وهيأت الأرضية للحرب.

لقد خُدع الاسرائيليون. فبسبب اعتقاد بن غوريون وغيره من القادة الإسرائيلين بأنهم قادرون على الاحتفاظ بالأراضي التي احتلوها فيما وراء حدود التقسيم وإبقاء اللاجئين خارج فلسطين لم تقم القوات الاسرائيلية بإنزال مزيد من العقوبات بالجيوش العربية. إذ كانوا يعتقدون أن تحقيق السَّلام ليس إلا مسألة شهور، إن لم تكن أسابيع. ولكن ما إن انسحبت قواتهم حتى أعلنت الحكومات العربية أن الهدنة لم تكن سوى هدنة مؤقتة يستطيع العرب بموجبها مقاطعة البضائع الاسرائيلية، وحرمان إسرائيل من الإبحار عبر مضائق تيران وقناة السويس. وادعوا أنه لا توجد إسرائيل، بل يوجد جيش إسرائيلي، ولا توجد حدود إسرائيلية بل هي خطوط هدنة عشوائية تتخللها مناطق منزوعة السلاح (DZS) مختلف على ملكيتها.

وهكذا فقد هُلِّلَ للاتفاقات مبدئيا بوصفها مكسباً، لأنه سرعان ما أصبحت إسرائيل حجر الرحى فيها. فقد حاولت إسرائيل أن تتحدى حصار السويس في مجلس الأمن في العام ١٩٥١ ولكن سرعان ما تجاهلته مصر في حين قامت سوريا في الشمال باحتلال قمم بعض التلال فوق خط الهدنة. وأصبحت لجان الهدنة المشتركة (MACS) التي شكلت لتعالج الشؤون اليومية، ميداناً للاتهامات

والاتهامات المضادة؛ الأمر الذي جعل معظمها يتوقف عن العمل تماماً. كما فشلت الجهود التي بذلتها لجنة التوثيق الفلسطينية التابعة للأمم المتحدة («UN Palestine Conciliation Commission (PCC)») وحكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا في دفع إسرائيل والدول العربية في اتجاه السلام.

ومع ذلك لم يكن جميع القادة العرب ضد السلام، من حيث المبدأ على الأقل، خصوصاً إذا جلب لهم هذا السلام مكاسب إقليمية.

وعلى الرغم من قرعهم طبول الحرب لتهدئة الشارع في بلدانهم، كان بعض القادة يسعون سراً لعقد اتفاقات مع الصهيونيين.

فالدكتاتور السوري حسني الزعيم عرض سراً توطين ٣٠٠,٠٠٠ لاجئ فلسطيني مقابل سيطرة سورية على نصف بحيرة الجليل (بحيرة طبريا).

أراد ملك الأردن، عبد الله، ممراً بين الضفة الغربية التي ضمها حديثاً والبحر المتوسط، وطالب فاروق، ملك مصر، بكامل صحراء النقب -٦٢٪ من مناطق إسرائيل. عارض بن غوريون، على أية حال، تقديم أية تنازلات ثنائية عن الأرض مفضلا بقاء الحال على ما هو حيث تستطيع إسرائيل تنمية بنيتها التحتية واستيعاب المهاجرين، وتجميع قوتها. بيد أن فشل التوصل إلى سلام لا يعود إلى عناد بن غوريون بقدر ما يعود إلى عجز العرب عن التعامل مع إسرائيل بصورة رسمية عادية. وهكذا أقنع مجلس الوزراء الأردني الملك عبد الله بإيقاف المحادثات مع إسرائيل، وأوضح المبعوثون المصريون أن عقد اتفاق مع الصهيونيين الآن أو حتى في المستقبل المنظور سوف يكلفهم حياتهم بالتأكيد. (١٠)

لقد باءت جهود الحكام العرب لمسايرة الرأي العام بالفشل في النهاية لأنهم أخذوا يتساقطون الواحد تلو الأخر. فحسني الزعيم لم يكن يكمل شهوراً ستة في الحكم قبل أن يطاح به ويُعدم، معطياً نموذجاً لستة عشر نظام ستنشأ وتزول في سوريا خلال سنوات. وتلاه الملك عبد الله الذي أردته رصاصة فلسطينية خارج المسجد الأقصى في القدس في يوليو (تموز) من العام ١٩٥١، أمَامَ ناظِرَيْ حفيده حسين الذي ورثه في الحكم فيما بعد.

كما مُثِّلَ بالملك العراقي الهاشمي، فيصل، على يد غوغاء متوحشين في بغداد في العام ١٩٥٨، مع رئيس وزرائه نوري السعيد الذي كان صوته عالياً صاخباً ضد الصهيونيين، ولكنه كان يتصل بهم سراً. (١١)

وجاء دور مصر في يوليو(تموز) من العام ١٩٥٢، إذ أطيح بملكها فاروق على يد عصبة من الضباط الأحرار المزيفين بقيادة الجنرال محمد نجيب.

ثم أطيح بمحمد نجيب نفسه في غضون سنة على يد الرجل الحقيقي القوي الذي كان وراء النظام، البكباشي (كولونيل) الملهم ومدعي الاعتدال جمال عبد الناصر.

اعتقد الاسرائيليون أن بإمكانهم إقامة عمل مع هذا الرجل. انخرط ممثلون مصريون وإسرائيليون مرَّة أخرى في اتصالات سرية، حتى إنه قدمت رسالة غير موقعة من جمال عبد الناصر إلى القادة الإسرائيليين.

بيد أن الموقف الأساسي لمصر لم يتغير: لا يمكن التفكير بعقد سلام في الظروف الحالية، ولن يكون السلام ممكنا إلا بتنازل إسرائيل عن صحراء النقب بأكملها. وبحلول العام ١٩٥٣، عندما بدأت مصر ترعى هجمات الفدائيين الفلسطينين داخل إسرائيل، وتجددت الدعوة إلى «جولة ثانية»، رأى بن غوريون أن الاتصالات لم تكن سوى لعبة ومحاولة لتخدير إسرائيل قبل ذبحها.

حصل في السنة الثالثة، ١٩٥٤، منعطف فاصل في الشرق الأوسط لم يلحظه أحد في أي مكان آخر في العالم. إذ تحول ولاء الاتحاد السوفياتي في تلك السنة إلى الطرف الآخر. كان الاتحاد السوفياتي في الواقع، قبل ذلك التاريخ، يدعم إسرائيل منذ نشأتها واعترف بها وزودها بالسلاح. بيد أنه لم يعد هناك ما يكسبه من الصهيونية -إذ كانت الامبراطورية البريطانية آخذة بالأفول- وأصبحت مكاسبه تكمن في استرضاء الحكومات الجديدة في منطقة الشرق الأوسط التي جاءت للحكم بعد فترة الاستعمار، لتأمين حدوده الجنوبية غير المحصنة، وتهديد موارد النفط الغربية. فصرح السكرتير الأول للحزب الشيوعي، نيكيتا خروتشيف (Nikita

Khrushchev) بأن من يستحق الإدانة هو إسرائيل التي بدأت منذ ولادتها تهدد جيرانها ثم اتهمها فيما بعد بأنها متواطئة مع الامبريالية «وتنهب بصراحة ثروات المنطقة وفيما خلا تدمير إسرائيل، كان الاتحاد السوفياتي يدعم «حقوق العرب في فلسطين» وكل الوسائل التي تؤدي إلى حصولهم على تلك الحقوق». (١٢)

وصلت الحرب الباردة إلى الشرق الأوسط؛ وفي سنة ١٩٥٤، أخذت الولايات المتحدة وبريطانيا تطمحان إلى الدفاع عن المنطقة من خلال تحالف يضم دول الإزار الشمالي: إيران وتركيا وباكستان، مع جيرانها من الدول العربية. ولما كان الصراع العربي الاسرائيلي يشكل عقبة في سبيل تحقيق هذا التكتل، شرع المخططون الأنكلو - أمريكيون في السعي لإزالة هذه العقبة عن طريق مبادرة سليمة سرية. وكانت الخطة التي أُطلِق عليها اسم رمزي هو (ألفا ALPHA) تقضي بإجبار إسرائيل على التنازل عن قطع كبيرة من الأرض لقاء وعد العرب بإنهاء حالة الحرب معها. وكان مفتاح هذه المسألة المفترض جمال عبد الناصر المقرب من الأمريكيين - إذا كانت CIA قد ساعدته بهدوء في انقلابه - والذي كان يؤمل في تحقيق مكاسب كبيرة من تعاونه مع أمريكا. وكان الثمن الذي سيدفع هو شحنات من الأسلحة الأمريكية لمصر، وإقامة جسر بري عبر النقب (١٣) وهو ما كانت مصر تتوق لإقامته.

كانت الرابطة المادية بين مصر والمشرق تلوح بوضوح في تفكير عبد الناصر. فالضابط الذي تولى السلطة واعداً بإجراء إصلاحات داخلية، قد اكتشف الآن العالم وراء حدود بلاده فصرح أن مصر بلد عربي، وغير منحازة في الحرب الباردة، وبدأ يتحدث عن دوائر اهتمام ومصالح متحدة المركز، العالمين العربي والإسلامي، وإفريقيا تقع مصر في قلبها، ويقف جمال عبد الناصر في مركز مصر.

بدأت التحديات تظهر أمامه، فلم يضيع وقتاً في التصدي لها. إذا أنجز اتفاقاً مع بريطانيا لإنهاء احتلالها لقناة السويس منذ اثنين وسبعين سنة، ثم استدار لإحباط محاولات بريطانيا لإلحاق العراق بحلف الحزام الشمالي الذي عرف

حينذاك باسم «حلف بغداد». ثم تبنى الأفكار الاشتراكية، بذكاء بادئ الأمر، مازجاً إياها مع القومية العربية والوطنية المصرية. أما المتطرفون الإسلاميون فقد اعتبروه زنديقاً وحاولوا قتله، ولكن ذلك لم يردعه. ولدى نجاته من إحدى محاولات اغتياله أعلن مراراً وتكراراً: «أنهم يستطيعون قتل عبد الناصر، ولكن ناصراً آخر سيحل محله!! الثورة مستمرة». (١٤)

بدأت الدراما تتعاظم حوله، ومع ذلك فقد تجاهل تقريباً أهم قضية عربية وأكثرها حدة وتأثيراً: ألا وهي فلسطين، ففي حين احتفظ بالحصار وبمستوى معتدل من الأنشطة الفدائية، فقد خفف حدة الصراع مع إسرائيل واضعاً إياه، كما يحلو للدبلوماسيين القول، في «الثلاجة». لكن الشارع العربي كان يطلب أكثر من ذلك. إذ إن مجرد وجود إسرائيل يُعدُّ أمراً مرعباً للعرب، ومذكراً باغتصاب فلسطين، ورأس جسر لعودة الاستعمار. ومن الأمور التي ضغطت على عبد الناصر أكثر، ليس فقط وجود إسرائيل، بل أيضاً أنها أكدت وجودها وعززته عسكرياً.

رداً على هجمات الفدائيين، قامت وحدات من جيش الدفاع الإسرائيلي الخاصة بغارات عقابية عبر الحدود. ففي عملية واحدة فقط في قبيه، إحدى مدن الضفة الغربية، جرت في أكتوبر (تشرين أول) من العام ١٩٥١ نسفت وحدات كوماندوز إسرائيلية بقيادة الرائد أرئييل شارون (Ariel Sharon) عشرات المنازل، وقتلت ٦٩ مدنياً عن غير قصد كما ادعى. وقامت إسرائيل بتجفيف بحيرة الحولة في شمال الجليل، الأمر الذي كدَّر سوريا وفلحت المناطق المنزوعة السلاح وزرعتها. ولم يستثن عبد الناصر من هذه الأنشطة.

إذ أبحرت السفينة الإسرائيلية بات غاليم (Bat Galim) في قناة السويس حيث سبب استيلاء مصر عليها فضيحة عالمية، وأخيراً قام العملاء الإسرائيليون بمحاولات لإحباط عملية خروج بريطانيا من قناة السويس وذلك عن طريق إحداث فوضى في مصر بفضل تخريب المؤسسات العامة. فألقت السلطات المصرية القبض على أحد عشر مصرياً يهودياً اتُّهموا بالخيانة.

لقد أغضب ذلك عبد الناصر وشعر بالإذلال، فكثف من دعمه للفدائيين الفلسطينيين، ورفض الإفراج عن السفينة الإسرائيلية أو العفو عن المخربين المصريين اليهود الذين أعُدِم منهم اثنان شنقاً في النهاية، أما البقية فحكموا بالسَّجن. كما رفض خطة ألفا على الرغم من مغرياتها الإقليمية «فرد بن غوريون رداً سريعاً وقاسياً: وكانت أكبر عملية انتقامية ضد قوات عربية نظامية منذ عام ١٩٤٨. إنها الإغارة على غزة (هكذا أصبح اسمها) في الثامن والعشرين من فبراير (شباط) ١٩٥٥ التي أسفرت عن مقتل واحد وخمسين جندياً مصرياً وثمانية جنود إسرائيليين، وأطلقت العد التنازلي نحو الحرب.

وهكذا أخذ العنف يتصاعد خلال العام ١٩٥٥. إذ استمر ناصر بالاعتداء على إسرائيل بعمليات فدائية، وعلى الصعيد السياسي اتخذ موقفاً ضد السلالات العربية المحافظة الحاكمة -كالهاشميين في الأردن والعراق، والسعوديين- الذين كانوا يعارضون راديكاليته المتشددة. ثم وجه ضربة في سبمتمبر (أيلول) إلى إسرائيل والملوك العرب على حد سواء. إذ ابتاع أسلحة سوفياتية من خلال موردين تشيكيين (Czech) فقد اشترى دبابات ومدافع وطائرات نفاثة أكثر من كل أسلحة الشرق الأوسط مجتمعة.

وفي تطور مفاجئ قفز الاتحاد السوفياتي فوق الحزام الشمالي وحط في مفرق الطرق بين آسيا وإفريقية، في حين حلَّق عبد الناصر إلى وضع لم يسبق له مثيل في التاريخ العربي الحديث؛ وأخذ يدعو الشعب العربي مباشرة إلى الوحدة والكرامة برعاية مصر ورعاية عبد الناصر متجاوزاً بذلك الحدود التي صنعها الاستعمار.

كان بن غوريون يراقب صعود ناصر بقلق شديد. فقد تنبأ منذ زمن بعيد بظهور شخص قوي ذي جاذبية لدى الجماهير، أي أتاتورك (Ataturk) آخر يوحد العالم العربي من أجل الحرب. وفجأة تجسد ذلك الكابوس حقيقة واقعة. وقال بن غوريون: أصبحت القضية مسألة وقت قبل أن يستوعب الجيش المصري السلاح الجديد المتدفق بوفرة، ومن ثم لا يعود له عذر في عدم استخدامه. فأثبتت نبوءته صحتها تماماً: إذ

شهدت الشهور الستة التي تلت تلقي الأسلحة السوفياتية قتالاً حدوياً واسع النطاق، وأعمالاً انتقامية، وهجمات فدائيين التي أزهقت أرواح المئات. (١٥)

بحلول ربيع العام ١٩٥٦ كان بن غوريون قد قرر حسم الأمر مع مصر. فوضع خطة التعاون مع تابعيه موشي دايان رئيس هيئة أركان جيش الدفاع الإسرائيلي، وشمعون بيريز مدير وزارة الدفاع، لإنزال هزيمة بالجيش المصري والحط من هيبة ناصر. وكل ما كانت إسرائيل تحتاجه هو دولة عظمى تمدها بالسلاح وتحميها من التدخل السوفياتي، كانت الولايات المتحدة خارج الموضوع بسبب رفضها المتكرر لاقتراح إسرائيل بعقد معاهدة دفاع مشترك، وكذلك بريطانيا التي هددت بقصف إسرائيل بسبب هجماتها على الأردن! ولكن إسرائيل قد وجدت حليفاً لها فرنسا التي كانت في حرب ضد القومية العربية في الجزائر - والتي كانت تشارك إسرائيل أفكارها الاشتراكية.

حَضّر بن غوريون للحرب ولكن ناصراً كانت لديه مواجهة أخرى. ففي ٢٣ يوليو (تموز)، أي بعد أسابيع من بدء المفاوضات على عقد معاهدة مع بريطانيا وفرنسا بشأن مستقبل قناة السويس! أعلن من جانب واحد تأميم القناة. وإثر تهديدات ناصر لحلفاء بريطانيا في الأردن والعراق، ولفرنسا في الجزائر، أصبح الأوربيون على استعداد لاستخدام القوة لإجبار عبد الناصر على التخلي عن القناة (يتقيأها). ولكن كما أن إسرائيل كانت بحاجة إلى دعم قوة عظمى، كذلك كانت فرنسا وبريطانيا بحاجة إلى دعم قوة فائقة، هي الولايات المتحدة.

لم تكن إدارة إيزنهاور (Eisenhower) مفتونة بعبد الناصر آخذة في الاعتبار سياساته غير المنحازة وصفقات السلاح التي يعقدها مع الاتحاد السوفياتي. وكانت آخر خيبة أمل لأمريكا هي مبادرة ثانية باسم غاما (Gamma) عرضت على مصر يجري بموجبها إعلان مصر إنهاء حالة الحرب والعداء مقابل تنازل إسرائيل عن قطعة أرض. إذ أرسل الرئيس الأمريكي إيزنهاور مبعوثه الشخصي، روبرت ب.

أندرسون (Robert B.Anderson) التكساسي وزير المالية الأسبق كوسيط لبحث هذه الصفقة. فوجد بن غوريون غير قابل لتقديم أي تنازل بشأن الأرض، ولكنه كان راغباً في لقاء عبد الناصر في أي مكان وأي زمان. أما عبد الناصر فقد أوضح المهمة منذ البداية بتساؤله: لم المجازفة بالتباحث مع إسرائيل من أجل حلف بغداد؟ وبالتالي فقد رفض استقبال أندرسون. وبعد ذلك وافق أيزنهاور على مشروع آخر بالغ السرية اسمه أوميغ (Omega) يهدف إلى الإطاحة بجمال عبد الناصر بأية وسيلة سوى الاغتيال(١٦).

كانت واشنطن تكره عبد الناصر، في واقع الأمر، ولكنها مع ذلك كانت تكره الاستعمار الأوربي أكثر من كرهها لعبد الناصر. ولهذا، برغم كون الولايات المتحدة أحد الأطراف الموقِّعة على التصريح الثلاثي مع بريطانيا وفرنسا الذي مفاده: منع أية محاولة لتغيير الحدود في الشرق الأوسط بالقوة، فإنها لم توافق على اعتبار تأميم عبد الناصر للقناة محاولة لتغيير الحدود بالقوة، ولم تقر استخدام القوة ضد مصر. ثم توالت سلسلة من المبادرات الدولية تهدف كلها إلى حل الأزمة، ولكنها جميعاً تفتقر إلى الأسنان (آلية التنفيذ). وأخيراً بلغ غضب فرنسا حده فلجأت إلى حلفائها وأقنعت بريطانيا بأن تحذو حذوها. وهكذا وقع في ٢٤ سبتمبر (أيلول) ممثلون عن ثلاث دول بروتوكولاً بالغ السرية في سيفريه (sevres) إحدى ضواحي باريس. وبموجب هذا البرتوكول تتظاهر إسرائيل بالهجوم على قناة السويس، وبذلك تعطي مسوّغاً للأوربيين لاحتلال القناة بذريعة حمايتها. وبالمقابل يتلقى الإسرائيليون دعماً جوياً وبحرياً لدى قيام قواتها بتدمير الجيش المصري في سيناء وفتح مضائق تيران. (١٧)

نشبت الحرب العربية الإسرائيلية الثانية المعروفة في إسرائيل باسم «حملة سيناء»، وفي البلدان العربية باسم «العدوان الثلاثي» في فجر التاسع والعشرين من أكتوبر (تشرين أول). نزلت قوات إسرائيل المظلية في ممر متلا «Mitla pass» الواقع على بعد ٢٤ ميلا شرقي القنال. وبموجب الذريعة المتفق عليها سلفاً، أعلنت بريطانيا وفرنسا إنذارهما النهائي الذي رفضته مصر كما هو متوقع. وفي الوقت نفسه اخترقت تشكيلات دايان المدرعة الخطوط المصرية في وسط سيناء وجنوبها وتابعت سيرها

عبر قطاع غزة المحتل من قِبل مصر. فأصيب الجنرال محمد عبد الحكيم عامر رئيس هيئة أركان الجيش المصري بالهلع فأمر جنوده بالتراجع. كان انتصار إسرائيل سريعاً -أسرع مما توقعت بريطانيا وفرنسا. كانت الأرمادا الأنكلو- فرنسية تتهادى في البحر في حين كان القادة الفرنسيون والبريطانيون يترنحون تحت الضغط العالمي. فلم يبدأ الغزو حتى الرابع من نوفمبر (تشرين ثاني) في الوقت الذي ادعى فيه المصريون أنهم لم يطردوا من سيناء بل تراجعوا تكتيكياً للدفاع عن بيوتهم.

تعد عملية مسكيتير (Musketeer) (هذا هو اسمها الرمزي) عملية عكسرية ناجحة تماماً. إذ تشتت الجيش المصري، ثمّ إعادة احتلال ثلاثة أرباع القناة. ومع ذلك كانت النتائج السياسية كارثية. إذ اختفت الحرب الباردة والفروقات الثقافية لدى توحد المجتمع الدولي في إدانة الهجوم. وثبطت عزيمة بريطانيا وفرنسا تحت ضغط التهديد الأمريكي بفرض عقوبات، وتهديد الصواريخ السوفياتية. فانسحبت قواتهما تجر أذيال الخزي، وأنزلت أعلامهما من الشرق الأوسط نهائياً وإلى الأبد.

وبالمقابل لم يكن الإسرائيليون الذين كانوا يسيطرون على كل سيناء ومضائق تيران في عجلة من أمرهم. إذ على الرغم من الضغط الهائل الأمريكي والروسي الذي تعرضت له، فقد كانت مازالت تتمتع بتعاطف دولي بوصفها. ضحية المقاطعة والإرهاب، إضافة إلى ما كان يلقاه بن غوريون من دعم قوي داخل إسرائيل. وفي حين كان يخضع للمطالب الداعية إلى سحب قواته من سيناء، فإنه ربط قبوله بضرورة حصوله على ضمانات بحرية العبور من مضائق تيران وحماية إسرائيل من الغارات الحدودية. وصرح قائلاً: إن الهدنة التي مارست مصر في ظلها العدوان على إسرائيل قد ماتت.

تبع ذلك دبلوماسية كسر الأعناق لمدة شهور، حاول خلالها أبا إيبان (Abba Eban) السفير الإسرائيلي المفوض إلى الولايات المتحدة والأمم المتحدة جاهداً لتأمين مصالح بلاده غير منقوصة.

بيد أن دور الإنقاذ لم يلق على عاتق إيبان، بل على كاهل وزير خارجية كندا ليستر مايك بيرسون (Lester Mike Pearson). وبوصفه موثوقاً من قبل جميع الأطراف ذات الصلة -العرب والإسرائيليين والأوربيين- ثقة لا يتطرق إليها الشك طرح بيرسون تصوراً لإيجاد قوات طوارئ متعددة الجنسيات تابعة للأمم المتحدة (UNEF) لمراقبة الانسحاب البريطاني-الفرنسي من مصر، ثم طبق ذلك المفهوم على القوات الإسرائيلية في سيناء. وتتضمن هذه الفكرة نشر قوات من مجموعة من الدول على طول الحدود المصرية- الإسرائيلية، في قطاع غزة وشرم الشيخ المطلة على مضائق تيران. قاوم ناصر الفكرة كما هو متوقع، إذ اعتبرها تقييداً لسيادة مصر ومكافأة لإسرائيل على عدوانها.

وكذلك بن غوريون اعترض عليها لأنها تخوِّل ناصر أن يطرد هذه القوة الدولية متى رأى ذلك مناسباً.

لقد تم تخطي العقبة هذه باتفاقين صادقين صافيي النية - أحدهما بين وزير خارجية أمريكا جون فوستر دالاس (John Foster Dalles) وغوالد مائير (Golda Meir) وزيرة خارجية إسرائيل. ووعد همر شولد (Hammarskjold) عبد الناصر أن يكون لمصر الحق في إخراج قوات الطوارئ ولكن بعد دراسة الجميعة العمومية للأمم المتحدة فيما إذا كانت قوات حفظ السلام قد أنجزت مهمتها. ووعد دالاس أن الولايات المتحدة سوف تعتبر أية محاولة مصرية لإعادة فرض الحصار على مضائق تيران عملاً حربيا يحق لإسرائيل أن ترد عليه دفاعاً عن النفس بموجب المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة. وفي مثل هذه الحالة تعهدت مائير بإحاطة الولايات المتحدة علما بنواياها. انضمت بريطانيا وفرنسا كذلك إلى هذا الاتفاق بالإضافة إلى كندا وعدد من الدول الغربية - مثل السويد وبلجيكا وإيطاليا ونيوزيلاندا. حدثت أخطاء بسيطة عندما عادت القوات المصرية إلى غزة، وعندما كرر دالاس دعمه للهدنة، ولكن بحلول ١١ مارس من العام ١٩٥٧ كانت قوات الطوارئ الدولية قد أخذت مواقعها، وآخر جندي إسرائيلي قد غادر سيناء. (١٨)

ومن خلال ذلك كله، ظل الصراع العربي -الإسرائيلي يشكل السمة الثابتة للحياة في الشرق الأوسط. إذ اتسع نطاقه من نزاع محلي في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته إلى أن شمل المنطقة كلها في أربعينيات ذلك القرن، وأصبح نزاعاً في خمسينيات القرن. فالتأمت عناصر السياق والبيئة المؤلفة من الصراع العربي-العربي، والتنافس بين القوى العظمى ومخاوف إسرائيل وتبجحاتها، والمرارة التي تعتصر نفوس الفريقين.

وإن كان هناك وضع جديد قد نشأ فهو ليس سوى عدم استقرار موروث متأصل، وحالة قابلة للاشتعال، تلهبها أصغر شرارة.

حروب باردة / حروب ساخنة

لقد أفادت حرب الـ ١٩٥٦ كلا الطرفين. فقد أشاعت الدعاية المصرية أن عبدالناصر قد حقق انتصاراً أساسياً وعسكرياً في الحرب، إذ هزم وحده الإمبرياليين، وحشد الرأي العالمي ضد إسرائيل، التي لم تستطع تحدي مصر وحدها. وبعودة قناة السويس لمالكها غير القابل للتصرف أو التغيير، يمكن أن تصبح مصر قوة إقليمية، إن لم تكن قوة عالمية عظمى. (١٩)

أما الإسرائيليون فاعتقدوا أن الحرب جلبت لهم عشر سنوات على الأقل من الهدوء، وهو عقد صلب من التنمية. ولقنت قوات الدفاع الإسرائيلي الغرب درساً بأن إسرائيل حقيقة راسخة واقعة لا يمكن استغفالها وتمزيقها ولو بالاستدراج من قبل القوى الكبرى. ولم يعد هناك خطط ألفا ولا غاما. بل بدلاً منها نشأت علاقات وثيقة واسعة بينها وبين بلدان آسيوية وإفريقية، والحصول على النفط من إيران، وعلى طائرات حربية متقدمة -أوراغان (Ouragan) والميستير (Mystere) والميراج (Mirage)-من فرنسا.

وساعد الفرنسيون إسرائيل بأجرأ إنجاز وأكثره جدلاً في ميدان الأمن، وهو المفاعل النووي قرب مدينة ديمونة (Dimoma) الجنوبية.

إلى جانب هذه الإضافات الإيجابية، هناك جوانب سلبية لحرب العام ١٩٥٦. فإذ كانت ثقة الإسرائيليين بشجاعة إسرائيل العسكرية وبراعتها فإن الخوف من الضغط

العالمي قد تعاظم كذلك. وظل العرب يعتقدودن بما لا يدع مجالاً للشك أن «الكيان الصهيوني» (إسرائيل) ممقوت وبغيض جداً، وأنه أداة إمبريالية عدوانية، ولكنه ذ أيديولوجية ضعيفة فإذا ما كانت الجولة الثانية أنجح من الأولى، فلا شك أن الجولة الثالثة ستحقق النصر وما على عبد الناصر إلا خوض هذه الجولة. (٢٠)

ومن حسن حظ إسرائيل أن عبد الناصر لم يقع ضحية «تناذر السويس» العربي، ولم ينخدع بدعايته المصرية. فهو يعلم أن الجيش المصري قد هزم على يد قوات الدفاع الإسرائيلي، وأن حرباً أخرى مهما رُوِّج لها لا بد وأن تتأخر قدر المستطاع إلى أن يصبح العرب أقوياء. فتعاون مع قوات الطوارئ الدولية، وأبقى قوة رمزية منها في سيناء، وصارت السفن الإسرائيلية تعبر مضائق تيران دون أية مضايقات، وعادت القضية الفلسطينية الآن ثانية إلى الثلاجة برغم خطابات عبدالناصر العداونية الطنانة.

وبدلاً من ذلك كرس ناصر طاقاته إلى تحقيق خلطة أكثر راديكالية من الاشتراكية العربية والقومية -ألا وهي الناصرية- وإقامة سلسلة من حركات الحزب الواحد لإحياء الجماهير وتحقيق قفزة في الاقتصاد المصري. ولم تعط هذه الجهود ثماراً سوى قلة قليلة منها. وبسبب اليأس من النجاح ازداد ناصر ميلاً نحو الاتحاد السوفياتي وصعّد صراعه مع ملوك الشرق الأوسط - ذلك الصراع الذي أسماه أحد العلماء: بـ «الحرب الباردة العربية».

حدثت انقلابات عنيفة متعاقبة، واغتيالات، وتفجيرات، بلغت ذروتها في الثورة العراقية في العام ١٩٥٨ومحاولة الإطاحة بحكومتي لبنان والأردن. وقد تم تفادي الحكومة الأردنية بفضل التدخل العسكري الغربي عندما طرد إيزنهاور بريطانيا وفرنسا وأخذ يسعى لملء الفراغ الناجم عن ذلك بعقيدة تحمل اسمه وهي «مبدأ ايزنهاور لملء الفراغ». إذ تعهدت أمريكا من ذلك الحين فصاعداً بالدفاع عن أي بلد شرق أوسطي يتعرض لتهديد الشيوعية أو حلفائها، الذين كانت مصر من أبرزهم. (٢١)

إلى جانب النكسات التي أصيب بها عبد الناصر في العام ١٩٥٨، فقد سجل

إنجازاً مذهلاً بتحقيق الوحدة بين مصر وسوريا. وتبنى النظام الجديد اشتراكية متطرفة، مؤدية للخط السوفياتي، وجسدت الجمهورية العربية المتحدة (وهو الاسم الذي أطلق على الوحدة هذه) المثل العربية الراديكالية. وأنشأ عبد الناصر في السنة التالية كياناً في غزة، وهو نوع من الحكومة في المنفى التي عبرت عن التزامها بالقضية الفلسطينية رغم عدم تمتعها بسلطة حقيقية. وتوج إنجازه في العام ١٩٦٠، بفضل حصوله على تمويل من الاتحاد السوفياتي لمشروع بناء السد العالي في أسوان الذي يعد «أكبر مأثرة هندسية في الشرق الأوسط منذ بناء الإهرامات» عمت الفرحة والنشوة الشارع العربي. وبفضل ربط نصفي العرب الشرقي والغربي في إطار دولة واحدة، الأمر الذي أدى إلى تضييق الخناق على إسرائيل، عادت الآمال والتوقعات بتحرير فلسطين عسكريا. ولم يستطع عبد الناصر تجاهل ذلك كله، خصوصاً عندما تعرضت سوريا في العام ١٩٦٠إلى التهديد بالحرب. (٢٢)

بدأ التهديد بمحاولة إسرائيل فلاحة المنطقة المنزوعة السلاح على طول الحدود الشمالية. أطلق السوريون النار على الجرارات الإسرائيلية وردت مدفعية الجيش الإسرائيلي بقصف بعض المواقع في مرتفعات الجولان المطلة على إسرائيل. ولدى ارتفاع حرارة الاحتكاك دخل الاتحاد السوفياتي وأخبر عبد الناصر بأن إسرائيل تخطط لغزو سوريا وحدد تاريخاً هو ٢٢ فبراير (شباط) عيد الجمهورية العربية المتحدة.

كان عبد الناصر قد تلقى تحذيرات مماثلة من قبل ولكنه اختار هذا الوقت ليتحرك نظراً لارتفاع حدة الرأي العام العربي. فاندفع لواءان مصريان بما فيهما اللواء المدرع الرابع إلى سيناء. وأحيطت قوات الطوارئ الدولية علماً بوجوب مغادرة شبه جزيرة سيناء في غضون ٢٤ ساعة خشية وقوع أعمال عدائية.

كان عرضاً للعضلات رائعاً لإسرائيل، التي لم يكن لها سوى ثلاثين دبابة في الجنوب دون حماية. فاستنفر الجيش بجنون في حين صرح الدبلوماسيون الإسرائيليون ليطمئنوا الحكومات الأجنبية بعدم وجود أية حشود حربية على أي من سوريا أو مصر. وظل التوتر عالياً حتى مطلع مارس (آذار)، عندما انسحبت

القوات المصرية من سيناء بهدوء كما دخلتها(٢٣). سببت هذه الفترة التي أطلق عليها جيش الدفاع الإسرائيلي اسم (ريتاما) على اسم النبات الصحراوي العَطر روتيم (rotem بالعبرية) جرحاً لإسرائيل، وحققت ما هو ليس بأقل من نصر لعبد الناصر. ولسوف تظل ذكراها حية في الأذهان ودروسها واضحة، في العام ١٩٦٧.

بيد أن سد أسوان و«ريتاما» كانتا مجرد استثناء في حكاية الجمهورية العربية المتحدة التي تمنى عبد الناصر أنها لم تكن. إذ إن الجمهورية العربية المتحدة أخذت تتفكك في ظل الجكومة المشتركة في سوريا بإدارة المشير عبد الحكيم عامر العاجزة كعجز جنرالاته في حرب ١٩٥٦. فقد انتشر الفساد والظلم والبطش، وهيمنت الدولة بقوة على الاقتصاد السوري المنفتح تقليديا وشاظ الضباط السوريون غضباً إذ وجدوا أنفسهم خارج أطر السلطة. فقامت ثلة من هؤلاء الضباط في سبتمبر (أيلول) من العام ١٩٦١، ومن بينهم صلاح جديد وحافظ الأسد بانقلاب ناجح وأعلنوا انفصال سورية عن الوحدة (٢٤). وحُمِّل عامر وهيئته في طائرة ورحلوا إلى القاهرة على وجه السرعة. ولم يبق لهم من ذكرى الجمهورية العربية المتحدة سوى اسمها الذي احتفظت به مصر من جانب واحد.

كانت مرحلة الانفصال بداية الانحدار في حياة عبد الناصر.

فقد اعتلت صحته -وصار يعاني من مرض نقص السكر في تلك السنة- ودخل في علاقات عاصفة مع خروتشيف الذي كان يرى أن مصر لم تكن راديكالية بما فيه الكفاية. وأخذ اقتصاد البلد ينهار. إن البقعة الوحيدة المضيئة في قلب هذه الفترة الحالكة كانت بفضل تحسن العلاقات المصرية مع الولايات المتحدة بإدارة جون ف. كِنَدي (John F.Kennedy) الجديدة.

وخلافاً لأيزنهاور الصدامي، كان كيندي يرى أن الجزرة يمكن أن تكون فاعلة ومؤثرة أكثر من العصا في احتواء النفوذ السوفياتي في الشرق الأوسط وإخراج عبد الناصرمن المشكلة.

وباستخدام «السلاح غير المنظور» كما أسماه تشيستر باولز (Chester Baules)، أحد كبار المسؤولين في إدارة كيندي قدمت واشنطن لعبد الناصر شحنات نصف سنوية من القمح والسلع الأساسية الأخرى كحافز له «ليترك الميكرفون للجرار» حققت هذه السياسة نجاحاً حيناً من الزمن. إذ بدا وكأن عبد الناصر انسحب من فوضى السياسات العربية -العربية وأخذ يركز أكثر على الشؤون المحلية (المصرية) فانفتح باب الحوار بين مصر وأمريكا على الرغم من أن دعم مصر لحركات التحرر الوطني المقاتلة وخصوصاً في أفريقيا، وتزعمها لحركة عدم الانحياز كان يؤرقها، ودليل هذا التحول ظهر في المراسلات بين الرئيسين، إذ كتب عبد الناصر إلى كيندي يقول: «ستظل هناك خلافات فيما بيننا»، ورد عليه كيندي مقتبساً كلامه قائلاً: «ولكن التفاهم المتبادل سيبقي هذه الخلافات ضمن حدود لا تتجاوزها». كما ظهر هذا التحسن في العلاقات بالمساعدات التي قدمتها أمريكا لمصر التي كانت تطعم ٤٠٪ من الشعب المصري في العام ١٩٦٢ . (٢٥)

إلاَّ أن أحداثاً أخرى وقعت في العام ١٩٦٢ قد بذرت بذور الكارثة في ذاك الانفراج في العلاقات الأمريكية -المصرية، وبذور المصائب في حياة عبد الناصر عموما. تلك هي مشكلة اليمن. إذ أطيح بالبدر، إمام ذلك البلد البعيد في أقصى جنوب الجزيرة العربية، على يد مجموعة من الضباط الأحرار بقيادة الجنرال عبد الله السلال (Abdullah.al-Sallal). فهرب البدر إلى الرياض سعيا وراء الحصول على دعم السعودية لتمرد مضاد. أما السلاَّل فقد اتجه إلى القاهرة.

وجد السلال عبد الناصر مازال يترنح بسبب تفكك الجمهورية العربية المتحدة، وبسبب انهيار سياساته الاقتصادية، إضافة إلى خشيته من تحول ولاء بعض ضباط جيشه الكبار. فكان تقديم الدعم التكتيكي لقوات السلال، قد منح عبد الناصر أمراً واقعاً.

فقبل ذلك مقدراً أن اليمن مكان ملائماً لإشغال اهتمام جيشه ولإنزال هزيمة سهلة بمنافسه السعودي ولإحراج المستعمرة البريطانية في اليمن وإرباكها. أما

خروتشيف الذي كان تواقاً للانتقام من الإرباك الأخير الذي ألم به بسبب أزمة الصواريخ الكوبية، فقد بارك خطوة عبد الناصر هذه. (٢٦)

وهكذا بدأت ورطة عبثية عنيفة جداً بحيث يمكن أن تسمى حرب فيتنام الوشيكة «يمن أمريكا» (٢٧) بسهولة. إذ كان الأسرى يعدمون بصورة روتينية، والجثث تُشوه، وقرى بأكملها تمسح من الوجود. وكانت القوات المصرية تقصف المخازن الملكية في المملكة العربية السعودية، ولأول مرَّة في التاريخ يستخدم جيش عرَبي الغاز السام. بالإضافة إلى أن حرب اليمن قد أشعلت الحرب الباردة بين التقدميين والرجعيين العرب، فقد عكرت صفو شهر العسل القصير في العلاقات المصرية - الأمريكية. فقد رأى كيندي في تدخل عبد الناصر في اليمن بدايات لتسلل الاتحاد السوفياتي إلى جنوب شبه الجزيرة العربية، لذلك أصر من خلال وسيطه الخاص إلسوورث بانكر (Elsworth Banker) على ضرورة التوصل إلى اتفاق تتوقف السعودية بموجبه عن دعم الإمام البدر وتسحب مصر جنودها من اليمن. ولكن في حين وافقت الرياض، فإن القاهرة قد نكثت بالعهد وأرسلت مزيداً من القوات إلى اليمن. فحذَّر كيندي في التاسع عشر من أكتوبر (تشرين أول)، أي قبل أكثر من شهر من اغتياله قائلاً: «إن انهيار فك الارتباط.. لن يؤدي إلاَّ إلى وضع تتباعد فيه الولايات المتحدة والجمهورية العربية المتحدة بدلاً من أن تتقاربا». (٢٨)

لم يدرك أحد أن الوضع العربي قد أصبح أكثر انعزالية وكآبة - ومع هذا فقد كان كذلك. إذ سقط النظام الحاكم في العراق الذي لم تكن علاقته مع مصر ودية، في فبراير ١٩٦٣ سقوطاً عنيفاً حيث قتل قادة الحكم رميا بالرصاص على يد راديكاليي حزب البعث. ولم يسفر الحديث عن وحدة ثلاثية بين مصر وسوريا والعراق سوى عن مسودة دستور وحسب.

وحدث حمام دم عندما طرد المتعاطفون مع عبد الناصر من الجيش العراقي، ومن ثم من الجيش السوري إثر إجهاض محاولة انقلاب في يوليو (تموز).

قتل المئات وأعدموا، ووقعوا ضحية نيران متقاطعة.

فما كان لمثل هذه الأحداث، والعلاقات الخارجية المصرية السقيمة جداً والعلاقات العربية - العربية عموماً إلا أن تدخل السرور على قلوب الإسرائيليين. إذ أصبح خطر نشوب حرب عربية إسرائيلية ثالثة بعيداً بسبب تفكك الجمهورية العربية المتحدة وغرق جيش عبد الناصر في مستنقع اليمن. فضلاً عن التطمينات التي جاءت من الولايات المتحدة بفضل التحسن الذي طرأ على العلاقات بينها وبين إسرائيل بمبادرة من كيندي. وخلافاً للجمهوريين الذين لم يكونوا يتمتعون بدعم غالبية اليهود الأمريكيين، والذين لم يكونوا يتعاطفون كثيراً مع إسرائيل، فإن الرئيس الديمقراطي الجديد كان يدين بنجاحه الحرج في الانتخابات الرئاسية إلى الأصوات اليهودية وكان يتكلم عن الدولة اليهودية بحرارة. فقد قال لوزيرة الخارجية مائير: «للولايات المتحدة علاقة خاصة بإسرائيل يمكن مقارنتها بعلاقتها مع بريطانيا. وأعتقد أنه في حال تعرض إسرائيل إلى غزو فإن الولايات المتحدة ستسارع إلى دعمها». وقد تجسد هذا الالتزام ببيع إسرائيل صفقة من الأسلحة تقدر ثمنها بـ ٧٥ مليون دولار، الدفعة الثالثة منها مخصصة لصواريخ هوك أرض - جو. (٢٩)

ومع ذلك لم تخل العلاقات الإسرائيلية - الأمريكية من احتكاكات. فلم تكن إدارة كيندي أقل معارضة من إدارة إيزنهاور لسياسة الانتقام الإسرائيلية، ومحاولاتها لتحويل نهر الأردن ومعارضتها لعودة اللاجئيين الفلسطينين. وأكثر ما كان يقلق كيندي الملتزم بعدم السماح للأسلحة النووية بالانتشار هو برنامج إسرائيل النووي. إذ كان يخشى أن يحفز إنتاج إسرائيل لمواد انشطارية العرب على تركيب صواريخ سوفياتية في مناطقهم، أو حتى توجيه ضربة استباقية إلى إسرائيل. فقد تذرع عبد الناصر بقدرة إسرائيل العسكرية المفترضة ليشرع بصناعة صواريخه مستعيناً بعلماء ألمان ونازيين سابقين بدلاً من الروس. ولم تنجح وعود إسرائيل المتكررة بأنه لن يرشح ما يضر أو يسيء في ديمونة، وأنها لن تكون الدولة الأولى في إدخال الأسلحة النووية إلى الشرق الأوسط، في تهدئة مخاوف الرئيس الأمريكي. فقد

أصر على ضرورة تفتيش المفاعل كل ستة شهور وإلا أعاد النظر بكل التزام أمريكا بأمن إسرائيل إذا ما رفض بن غوريون التعاون، وعرض عليه صواريخ هوك هذه عساه يتعاون. وكان بن غوريون يجادل قائلاً: إن مشاريع إسرائيل النووية تدخل في نطاق سيادتها، وإنها أفضل وسيلة لتضمن عدم حدوث هولوكوست آخر. ونشرت صواريخ هوك حول مفاعل ديمونا. (٣٠)

ولكن، لم يعد بن غوريون محرك العام ١٩٤٨ والعام ١٩٥٦ رغم كل ما يتسم به من حماسة وجلد، وتشدد، وصلابة رأس.

فعلى الرغم من أن إسرائيل قد حسنت علاقاتها مع أمريكا وتحالفت مع فرنسا وأنشأت روابط مع إفريقية وآسيا فإنها كانت تبدو في نظر بن غوريون مجرد غيتو معزولة ومكشوفة لا ترقى إلى أن تكون قوة إقليمية. «فالجمهورية العربية تزداد قوة بفضل الأسلحة السوفياتية» كما قال للرئيس الفرنسي شارل ديغول (Charles de Gaulle) في العام ١٩٦١، وأضاف قائلاً: «ويعتقد عبد الناصر أنه في غضون سنة أو سنتين يستطيع شن حرب خاطفة يدمر فيها مطاراتنا ويقصف مدننا». فقد قال عبد الناصر متباهيا أثناء الاحتفالات بثورة يوليو (تموز) في العام ١٩٦٢ حيث عرض صواريخه في شوارع القاهرة: «تستطيع هذه الصواريخ أن تصيب أهدافها جنوب بيروت فأصيب رئيس الوزراء الإسرائيلي بالهلع. كما أصابه الهلع ثانية عندما أعلنت مصر وسوريا والعراق في مايو (آيار) التالي: انهم سوف يقيمون وحدة ثلاثية بين الأقطار الثلاثة.

فحذر بن غوريون عندئذ سفير أمريكا في تل أبيب قائلا: «إننا نتعرض للتهديد بالتدمير كل يوم. فعبد الناصر يدعو إلى الحرب ضد إسرائيل وإذا ما حقق قدرة نووية، فاقرأ علينا السلام». والواقع أن صواريخ مصر لم تكن أكثر من صواريخ V-I «تعد مشروعاً مكلفاً فاشلاً، لن يدخل ميدان العمليات قبل بضع سنين». وذلك وفق المصادر المخابراتية الأمريكية، وأن التحالف العربي الجديد لم يكن سوى تحالف زائف، فلم يكن له تأثير يذكر على بن غورين.

ومع ذلك ضغط بإلحاح لعقد صفقة سرية مع مؤسسة مارسيل داسولت الفرنسية (French Marcel Dassault) لإنجاز مشروع إنتاج صواريخ أرض - أرض في غضون بضع سنين منذ ذلك الحين، أي في العام ١٩٦٦ أو ١٩٥٧ . (٣١)

لم تكن إسرائيل بدون دواع للقلق، فهي بلد محاط بحدود معادية طولها ٦٣٩ ميلاً وحوالي ثلاثين فرقة عسكرية.

ويمكن لمصر في المستقبل أن تفرض حصاراً على الإبحار في مضائق تيران ويمكن لسوريا التي تسيطر على منابع نهر الأردن أن تقطع المياه عن إسرائيل. وبلغت نفقات العرب مجتمعين على السلاح حوالي ٩٣٨ مليون دولار سنويا - وهو مبلغ يساوي ضعف ما تنفقه إسرائيل رغم أنها ضاعفت ميزانية التسلح لديها خمسة أضعاف. وعلى الرغم من أنه لم يقتل من المدنيين الإسرائيليين بنيران معادية سوى ١٨٩ شخصاً بين العامين ١٩٥٧ و١٩٦٧، في حين قتل ٤٨٦ في الفترة ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٦، فإن خطر الكمائن والقصف كان ماثلاً دائماً.

لم ينس الإسرائيليون ذلك قط، رغم أن مطلع ستينيات القرن العشرين لم يكن في نظر الكثيرين زمن تجاوز الخوف، بل كان زمن الأمن نسبياً، وزمن الازدهار. فزاد السكان ثلاثة أضعاف إذ أصبح تعداد سكان إسرائيل ٢,٩ مليون نسمة، وتمتعت الدولة بنمو سنوي قدره (١٠٪) ولم يضاهها في ذلك سوى اليابان.

وبلغت نسبة خريجي الجامعات في إسرائيل أعلى خامس نسبة في العالم. وازدهرت الفنون، وكانت الصحافة نشيطة وحرة.

وفي حين كان التحيز والتمييز العنصري منتشراً في البلاد ضد المهاجرين من شمال إفريقيا، إلا أن روح الحماس للأهداف الوطنية كانت فريدة. فقد حظر على فرقة الخنافس (Beatles) من تقديم عروض في إسرائيل بدعوى الأمن، والواقع أن المحافظين أرادوا حجب الشباب الإسرائيلي عن مثل هذا الفن، لأن المجتمع

الإسرائيلي كان محافظاً في أساسه يتشبث بأفكار جديدة، مادية بدائية، وبفكرة ضرورة إنتاج جيل جدِّي من القادة يتمتعون بثقة كبيرة.

لقد أرسيت قواعد هذه الثقة في جيش الدفاع الإسرائيلي، ذلك الجيش الذي ترعرع ونما فأصبح يضم ٢٥ لواءً و١٧٥ طائرة وحوالي /١٠٠٠ مدرعة مزودة بمدافع محسنة من عيار ١٠٥ مم، بحيث أصبح يشكل تهديداً باختراق الخطوط العربية وتأمين نصر مبكر قبل أن تدمر المدن الإسرائيلية المعرضة للقصف. وطُوِّر سلاح الجو الإسرائيلي بحيث أصبح قادراً على توجيه ضربة موجعة إلى مصر إدراكاً من قادة إسرائيل أن تحييد مصر يجعل بقية الجيوش العربية تنهار. بيد أن جيش الدفاع الإسرائيلي لم يكن مجرد قوة مقاتلة، بل كان مؤسسة تقوم على مفاهيم التطوعية، وعلى مفهوم قيادة الضباط لجنودهم على أساس «صيحة اتبعوني!!» وعلى قواعد المسؤولية الاجتماعية.

كان الإسرائيليون جميعاً رجالاً ونساء يعدون جنوداً دائمين في إجازات مؤقتة، وذلك بفضل نظام الجندية المتبع عندهم إذ تخدم المرأة ثمانية عشر شهراً خدمة نظامية ويخدم الرجل سنتين/ وتتبع هذه الخدمة بدورات احتياط سنوية إلى أن يبلغ المرء الثانية والخمسين من العمر. ولا يؤدي الجنود التحية ولا يقومون بتدريبات المشي إلا ما ندر -إذ يركز جيش الدفاع الإسرائيلي على السرعة، والارتجال «المبادرة الذاتية» والمرونة في القيادة. وكان الافتراض الشائع أنه لا خيار أمام إسرائيل سوى خوض حرب حياة أو موت أخرى، حرب يفوق فيها العدو جيش الدفاع الاسرئيلي عدداً رغم نموه بصورة هائلة(٣٢).

اجتمعت السياسة والقوة العسكرية في يونيو (حزيران) ١٩٦٣ عندما شعر الإسرائيليون باطمئنان كاف ليتركوا بن غوريون، أب البلاد، يقدم استقالته. أما السبب المباشر لاستقالة بن غوريون فهو الفضيحة الدائمة التي أحاطت بعملية التخريب في مصر والتساؤل عمن أمر بها، أهو أحد الوزراء أم عناصر في المؤسسة الأمنية؟ أصر بن غوريون على تشكيل هيئة قانونية مستقلة للتحقيق في الاتهامات في مواجهة معارضة اللجنة الحكومية الداخلية التي كانت قد بَرَّأت الوزير، وربط

وجوده في تشكيل الهيئة القانونية. فخسر. لأن أكثرية زملائه في حزب الماباي (حزب العمال الإسرائيلي) «Mapai» وقفوا إلى جانب اللجنة الوزارية، فخرج بن غوريون احتجاجاً على ذلك.

لم يكن مثل هذا التغير للحارس -إذ كان السبب الحقيقي وراء هذا الجدل هو رغبة محدثي التحرس في السياسة مثل غولدا مائير وأيغال آلون في أن يتقدموا ممكنا في زمن مليء بالمخاطر حقا، وما كانت الدولة لتعهد بقيادتها لرجل يحل محل مؤسسها، هو ذلك التكنوقراطي العجوز ليفي إشكول (Levi Eshkol).

لا تشابه بين الاثنين، بن غوريون وليفي إشكول. إذ كان إشكول بلا لون سياسي ولا خبرة له، فقد كان وزيراً للزراعة وللمالية يعرف الكثير عن الزراعة والمال ولكنه لا يعرف إلا القليل في شؤون الدولة. لم يتوقع السياسيون بقاءه في الحكم طويلاً إلا قلة منهم. مفترضين أن بن غوريون لا بد وأنه عائد إلى الحكم يوماً ما. حتى إن إشكول نفسه وصف منصبه «كرئيس وزراء بالوكالة». ولكن عندما وصل الأمر إلى علاقات إسرائيل مع العالم العربي تطابق منظورهما تماماً. إذ كان إشكول، أيضاً، يعتقد أن العرب يريدون الحرب وأن إسرائيل كانت ذات مرَّة لا تقهر عسكرياً ومعرضة للموت ـ مُشَبّهاً إياها بشمشون الجبار (بالعبرية اليديشية Shimshon dor nebech dikker)، وبالانكليزية (Samson the nerd). وهكذا، في غضون شهر واحد في العام ١٩٦٣، قال رئيس الوزراء الجديد لوحدة محمولة جواً من جيش الدفاع الإسرائيلي: «ربما يأتي الوقت الذي يحدد فيه المظليون حدود إسرائيل. إذ ينبغي ألاّ ينخدع جيراننا بأن ضعفنا يمنعنا من إراقة الدم». ويستدير إلى الكلية الحربية محذراً: «الخطر الذي نواجهه هو الدمار الكامل».

وصف البيئة وتحليلها

من المفارقات أن تكون إسرائيل مدينة بنجاحها إلى حدّ ما إلى العرب، إلى عدائهم الذي غلّف مجتمعا كان خياليا لولا هذا العداء. ومع ذلك وحّد هذا العداء نفسه العرب بطرق عدّة كان زعماؤهم تواقين إلى تسخيرها. فالوحدة المقترحة بين

مصر وسوريا والعراق عرضت على أنها تحالف ضد إسرائيل لأنه، برغم تقاربهم أيدولوجيا، لا توجد قضية أخرى يتفقون عليها.

قفد صورت مصر تدخلها في اليمن على أنه «خطوة على طريق التخلص من الصهيونية»، في حين أن حلف الطائف (Taif) السعودي -الأردني الذي عارض ذلك التدخل، وصف نفسه بأنه «جبهة ضد العدوان اليهودي». (٣٤)

بيد أن فلسطين كانت تياراً يجُذَبُ في اتجاهات متعارضة يوحّد العرب ويفرّقهم حسبما يوجهه قادة العالم العربي ضد منافسيهم.

فمع ولادة الوحدة الثلاثية ميتة، على سبيل المثال، وجَّه دكتاتور سوريا أمين الحافظ إلى عبد الناصر تهمة التعاون مع إسرائيل وبيع فلسطين لقاء إردبات قليلة من القمح. ورد عبد الناصر باتهام سورية «بطعن مصر في الظهر» ومحاولة جر العرب إلى الحرب قبل أن يتوحدوا. كما أن وصفي التل رئيس وزراء الأردن الدائم انضم إلى أعدائه الرئيسيين في دمشق وشجب بقوة عدم شن عبد الناصر حرباً على إسرائيل، وشجب رغبته في الاختباء وراء قوات الطوارئ الدولية. (٣٥) إن استمرار مشكلة مليون لاجئ فلسطيني، إضافة إلى السياسة الخارجية والدفاعية الإسرائيلية الثابتة يؤكد أن الصراع سوف يستمر ليكون عامل توحيد وتفريق في آن واحد.

فبحلول مطلع العام ١٩٦٤ بدا التيار وكأنه يسير في اتجاه التعاون بعيداً عن الانقسامات. والذريعة كانت خطط إسرائيل في شق قناة لجر مياه الجليل إلى النقب. إذ كان العرب يخشون أن إرواء النقب سيجعلها صالحة لاستيعاب ثلاثة ملايين مهاجر يهودي وتعزيز قبضة إسرائيل على فلسطين. سوف يفيد السوريون من ذلك الخوف في منافستهم لعبد الناصر. فدعوا إلى «حرب شعبية» لتدمير المخطط الصهيوني، أسوة بحرب التحرير الجزائرية المظفرة التي تدين الكثير إلى دعم عبد الناصر.

وألقت السعودية والأردن ثقلهما إلى جانب دمشق فوجدت مصر، أكبر دولة عربية وأقواها، نفسها معزولة فجأة، إذ بدت وكأنها غير راغبة في التصدي لإسرائيل.

لم يكن عبد الناصر راغباً في أن تحبط مناوراته. فرد بفكرة درامية إذ دعا إلى عقد قمة عربية. وأعلن أن «فلسطين فوق كل الاختلافات في الرأي. ومن أجل فلسطين، نحن على استعداد للّقاء مع كل الذين نختلف معهم». (٣٦)

كان يكمن وراء هذا الكلام المنمق عزوف عبد الناصر عن فتح سوريا المبادرة في الشأن الفلسطيني، وحاجته إلى تفادي خوض حرب لا تستطيع مصر الصمود فيها أو تحقيق النصر. وقد أوضح ذلك في كلمة ألقاها في الاسكندرية قبل انعقاد القمة بأسبوع، قائلاً:

«لا نستطيع استخدام القوة اليوم لأن الظروف لا تسمح لنا بذلك! فاصبروا معنا، فمعركة فلسطين يمكن أن تستمر، ومعركة الأردن تعد جزءاً من معركة فلسطين. إنني أقودكم إلى كارثة إذا ادعيت بأني سأحارب في وقت أنا عاجز عن خوض الحرب. لن أقود بلدي إلى كارثة ولن أقامر بمصيرها». (٣٧)

كانت مسألة تلافي الحرب وحفظ ماء الوجه يعدان حافزاً كافيا لعقد القمة، ومع ذلك كان لدى عبد الناصر حافز أقوى: ألا وهو الحاجة إلى الخروج من اليمن. إذا ازداد عدد القوات في اليمن من فرقة صغيرة في العام ١٩٦٢ إلى أكثر من ٥٠,٠٠٠ الأمر الذي أرهق الاقتصاد الذي كان على حافة الهاوية، ربما ازداد عامر وزمرته ثراء بفضل الحرب، ولكنها كلفت البلاد حوالي ٩,٢ مليار دولار -أي حوالي ٥ ملايين دولار لكل قرية مصرية- بالإضافة إلى آلاف الاصابات البشرية. لكي ينسحب من اليمن، كان لا بد لعبد الناصر من التفاوض مع السعودية وغيرها من الرجعيين الممقوتين لديه، وهو ثمن أصبح عبد الناصر في النهاية راغباً في دفعه.

انعقد في القاهرة في ١٤ يناير (كانون ثاني) من العام ١٩٦٤، أكبر تجمع لزعماء العرب منذ حرب فلسطين. بذل عبد الناصر جهده خلال الأيام الثلاثة التالية لتحقيق أهدافه في السيطرة على الثوريين المنحلة شكيمتهم، واختيار زملاء جدد له من الملوك المحافظين.

ولكن ذلك كلفه كثيراً. إذ وافقت القمة على خطة عربية كلفتها ١٧,٥ مليون دولار لتحويل مجرى الأردن عند منبعيه -نهري بانياس (Banias) والحاصباني (Hatzbani)- وبذلك تنخفض كمية المياه التي تصل إسرائيل انخفاضاً حاداً. ومع افتراض أن إسرائيل لن تقف مكتوفة الأيدي وهي ترى بلدها يجف، فقد أوجد المؤتمر قيادة عربية موحدة (UAC) لحماية مشروع تحويل نهري بانياس والحاصباني وللاستعداد لمواجهة أي عدوان إسرائيلي. وكُلِفتْ القيادة العربية الموحّدة التي خصص لها ميزانية قدرها ٣٤٥ مليون دولار خلال عشر سنوات بتوحيد السلاح العربي، وتقديم عون عسكري للأردن ولبنان وسورية. ووضعت خطط لدعم الدفاع اللبناني بقوات سورية وأردنية وعراقية، ووضع سلاح الجو العراقي المتقدم تحت تصرف القيادة العربية الموحدة. ووضعت شروط لخوض الحرب: السرية والوحدة والاستعداد العسكري الكامل. (٣٨)

وكانت القمة قد حظيت لأول مرَّة في تاريخ الشعوب العربية بموافقة جميع القادة العرب، الأمر الذي عُدَّ نصراً لعبد الناصر. ووضعت القيادة العربية الموحّدة تحت سلطة مصرية مباشرة بقيادة الجنرال علي علي عامر، ورئاسة أركانها بإمرة الجنرال عبد المنعم رياض. وأخذت مصر على عاتقها زمام المبادرة في الكفاح المسلح ضد إسرائيل، ولكن ساعة الحسم قد أرجئت لمدة سنتين ونصف حتى تستكمل القيادة العربية الموحدة استعدادها وتصبح جاهزة للعمل في العام ١٩٦٧. وبفضل حشد العرب جميعاً تحت سيطرة عبد الناصر الحازمة تجسد شعاره القائل «وحدة العمل» وأصبح حقيقة واقعة. (٣٩)

ولكن القمة لم تجد مخرجاً لمصر من مستنقع اليمن ولم تهدئ السوريين؛ إذ ما إن عاد أمين الحافظ إلى بلده حتى كرر القول: «إن ما نريده هو دفع الشعب العربي إلى دخول المعركة بكل الوسائل..» واتهم مصر ثانية بالاختباء خلف قوات الطوارئ الدولية (٤٠) كانت القيادة العربية الموحدة وسيلة، وما على سورية إلا أن تستغلها. لقد أدى سعي عبد الناصر إلى تحقيق الوحدة العربية وتأجيل الصراع مع إسرائيل إلى خلق إطار للشقاق دون أن يدري، الأمر الذي عَجّل زخم التحرك نحو الحرب.

ظهرت هذه الحقائق لعبد الناصر بالتدريج من خلال قمتين متعاقبتين إحداهما في الاسكندرية في شهر سبتمبر (أيلول) من ذلك العام، والثانية في الدار البيضاء في المغرب في العام التالي. وافقت وفود الدول العربية إلى القمة على إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة أحمد الشقيري وهو محام جريء ومهذار، كان يُعَدُّ عميلاً لعبد الناصر، وعلى تشكيل جيش تحرير فلسطيني ينشر على الحدود مع إسرائيل. أكثر من ذلك زيدت موازنة القيادة العربية الموحَّدة بحوالي ٦٠٠ مليون دولار، ووضعت الخطط «لوضع حد للعدوان الإسرائيلي» في وقت ما قبل حلول العام ١٩٦٧. ووافق الزعماء العرب على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لبعضهم البعض، وعلى التركيز على الهدف الأسمى وهو تحرير فلسطين. (٤١)

غير أن التعاون العربي - العربي ظل، مرَّة أخرى، حبراً على ورق. فرفضت الأردن نشر قوات جيش التحرير الفلسطيني على الضفة الغربية، ورفضت إدخال أية قوات سعودية أو عراقية إلى أراضيها. كما أنّ لبنان كانت مشمئزَّة من استضافة قوات أجنبية، ولم تكن العراق راغبة في إعارة طائراتها إلى القيادة العربية الموحدة. ولم ترغب أيَّة جيوش مدرَّبة حسب العقيدة الغربية ومزوَّدة بالسلاح الغربي في توحيد ترساناتها العسكرية بالاستعاضة عن السلاح الغربي بالأسلحة السوفياتية، ولم يرغب أحد في تلقي الأوامر من الجنرالات المصريين. وكان الشقيري محتقراً في جميع أنحاء العالم، ما عدا مصر وكان جيش التحرير الفلسطيني في تقهقر مستمر بسبب عدم التزام الدول العربية بوعودها. (٤٢)

كانت كل هذه الأمور مصدر صراع لعبد الناصر. وتعمقت المشاكل والمتاعب أكثر عندما شرعت سوريا وحدها بتحويل منابع نهر الأردن، في ربيع العام ١٩٦٤ مستغلة تورط مصر في اليمن. وكما كان متوقعاً، لم تقف إسرائيل مكتوفة الأيدي، بل قامت بقصف مدمر للأعمال السورية فدمَّرتها. صرح رئيس أركان الجيش السوري، صلاح جديد، قائلاً: «يشعر كل جندي في جيشنا أن إسرائيل ينبغي أن تمسح من الخارطة» وحث الجماهير العربية على «إشعال شرارة» الحرب مع إسرائيل ودعم جهود سورية للتحرير. (٤٣)

ولامت السعودية ناصر بطريقة ساخرة بأن تورطه في اليمن منعه من تحرير فلسطين. كما تمَّ تجاهل اتفاق السلام بشأن اليمن الذي تم التوصُّل إليه عن طريق تفاوض عبد الناصر والملك فيصل في أغسطس (آب) من العام ١٩٦٥، الأمر الذي دعا عبد الناصر إلى التهديد بغزو السعودية. وظل حوالي ٧٠,٠٠٠ جندي مصري من خيرة الجنود المصريين غارقين في اليمن.

وحاول عبد الناصر، لكي يخرج من المأزق أن يقود حملة مقاطعة لألمانيا بسبب اعترافها بإسرائيل، ولكن المملكة العربية السعودية والمغرب وليبيا وتونس لم تنخرط في هذه الحملة؛ ثم دعا إلى مقاطعة الرئيس التونسي الحبيب بو رقيبة بسبب قبوله قرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة. (٤٤)

سنتان تقريبا من القمة العربية لم تسفرا عن أية فائدة لمصر ولا لأية دولة عربية. إذ لم تنته حرب اليمن، ولم تنته المهاترات العربية العربية. وبدلاً من نشوء جبهة موحدة ضد إسرائيل كانت هناك خطط عدوانية مشتركة تهدف في الغالب إلى إثارة إسرائيل - باختصار برزت كل عيوب الوحدة، ولم يظهر شيء من منافعها. حتى الإنجاز الوحيد المهم، وهو إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، فقد وصفتها ما لا يقل عن سبع منظمات فدائية - من بينها فتح - بأنها منظمة عاجزة.

مازال الوضع العربي المعقّد يزداد سوءاً. فقد زادت العلاقات المصرية -الأمريكية توتراً وسوءاً باقتراب نهاية ولاية إدارة الرئيس كيندي، وقطعت نهائيا في عهد خلفه الرئيس لندن بينس جونسون (Lindon Baines Johnson). وأضيفت الهجمات على قاعدة ويلوس (Wheelus) الأمريكية الاستراتيجية في ليبيا، إلى سياسات مصر الثابتة تجاه الحرب في فيتنام والكونغو، وإسرائيل واليمن والملوك الموالين للمغرب- والتي كانت كلها تختلف عن سياسات واشنطن.

أما الشعرة التي قصمت ظهر البعير فقد كانت في نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٦٤، في ما أسماه سفير الولايات المتحدة إلى القاهرة، لوشياس باتل (Lucius Battle) «سلسلة صغيرة من الرُّعب». أولها قام مشاغبون بمهاجمة السفارة الأمريكية في العاصمة، وأحرقوا مكتبتها، ثم أسقطت القوات المصرية بالصدفة طائرة يمتلكها جون ميكوم (John Mecom)، رجل الأعمال التكساسي والصديق الشخصي للرئيس. وعندما اقترح باتل أن يعتدل سلوك عبد الناصر لتأمين استمرار حصوله على القمح الأمريكي، أعلن الزعيم المصري قائلاً: «يقول السفير الأمريكي إنّ سلوكنا غير مقبول، إننا نقول لهم من لم يعجبه سلوكنا فليشرب من البحر.. ولسوف نقطع ألسنة الذين يسيئون القول فينا.. ولن نقبل سلوك قطاع الطرق رعاة البقر». (٤٥)

وهكذا انتهت المساعدات الأمريكية لمصر بحلول العام ١٩٦٥.

كانت الولايات المتحدة تعمل جاهدة لنسف جهود القاهرة لإعادة جدولة ديونها العالمية، والحصول على رصيد في صندوق النقد الدولي. فقد عُلّقت شحنات القمح الأمريكي التي كانت تشكل ٦٠٪ من الخبز المصري. واقتنع عبد الناصر أن جونسون يسعى لاغتياله. بيد أن جزءاً كبيراً من خسارة مصر قد عوضتها المساعدات التي قدمها خروتشيف أثناء زيارته إلى القاهرة في مايو (أيار) من العام ١٩٦٤، والتي بدونها ما كان بالإمكان علاج علل البلاد المزمنة: إذ ازداد عدد سكان مصر من ٢٩,٢ مليون نسمة بنسبة ٣,٥٪سنويا، إضافة إلى الفقر (دخل الفرد سنويا حوالي ١٤٠ دولاراً، وتضخم بنسبة ٤٠٪) والسّقم (إذ كان معدل عمر الرجال ٣٥سنة).

وأمية منتشرة على نطاق كبير (٤٥٪ من الشعب). إضافة إلى سحق المنشقين والمعارضين بصورة وحشية، والتأميم العشوائي للمتلكات، والبيروقراطية الخانقة: هكذا كان الحال في مصر -الدولة البوليسية- في ستينيات القرن العشرين. حتى السد العالي في أسوان، أعظم رمز للناصرية، تبين أنه ساهم بنشر مرض البلهارسيا (bilharesia) في جمع أنحاء البلاد. (٤٦)

لم تكن هذه الصورة المحبطة هي صورة مصر وحدها. إذ كان تزايد السكان المفرط، وتضاؤل فرص العمل، ومستويات الرعاية الصحية والتربوية المتدنية، كلها أمراض متفشية في العالم العربي. (٤٧) وبوصف المجتمع العربي مجتمعاً أبوياً تكلله أنظمة دكتاتورية شمولية، لم يكن ناضجاً مؤهلاً للتقدم. حتى إن الهدف الأساسي من الوحدة -معاقبة الغرب المتغطرس والدولة اليهودية البغيضة التي فرضها الغرب عليهم- قد غاب عن نواظر العرب.

لقد دفع الإحباط وخيبة الأمل المغيرين من فتح إلى عبور الحدود إلى إسرائيل في الليلة الأولى من العام ١٩٦٥. لقد كان لذلك العمل، رغم أنه أجهض، تأثيراً انتشر في جميع أنحاء المنطقة العربية -لم يكن ذلك ملحوظاً بادئ الأمر، ولكنه كان تكتونيا (قوة أدت إلى ظهور أمور كثيرة). منها أن الصراع العربي الإسرائيلي الذي كان كامناً معطلاً خلال الحرب الباردة العربية - العربية، قد ظهر على السطح الآن مع الرغبة في الانتقام وبهذا اكتمل السياق أو المناخ لنشوب حرب.

خارج الثلاجة

على الرغم من هذه الاخفاقات التي بدت للعرب والإسرائيليين والقمتين العربيتين في العام ١٩٦٤-١٩٦٥، فإنها لم تكن سوى بؤر بركانية تجسد رغبة الجيران في اجتثاث الإخفاقات وإسرائيل. فالمخابرات التابعة لجيش الدفاع الإسرائيلي التي نفت سابقاً إمكانية خوض العرب حرباً من أجل الحياة، قد غيرت نغمتها الآن. إذ صرح أحد المسؤولين في مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي في تقديره لتلك المرحلة قائلاً: «كانت هذه الرغبة دائماً نظرية مجردة -حتى الآن- إذ علمنا لأول مرَّة بوجود خطة ذات مراحل واضحة، مع تحديد ساعة الحسم. وهكذا

كنا في العام ١٩٦٧-١٩٦٨ عرضة لمواجهة مبادرة عربية جديدة. وربما يكون التعبير عنها بالقيام بمحاولة أخرى لتحويل منابع نهر الأردن، وتشجيع هجمات الفدائيين، وحوادث حدود، وإغلاق مضائق تيران» وحذر أحد عناصر مخابرات جيش الدفاع الإسرائيلي قائلاً: «إن إسرائيل في محاولتها لاستعادة قوتها الرادعة ستقوم بتوجيه ضربة على أكثر من جبهة في وقت واحد، وبذلك رغم إرادتها، ستمكّن العرب من القيام بهجوم مضاد شامل». (٤٨)

كان السير نحو الحرب، من وجهة النظر الإسرائيلية، قد بدأ بالأعمال العربية على أرض الواقع. فعلى الحدود الشمالية شرع السوريون من طرف واحد بتحويل منابع الأردن في نوفمبر (تشرين ثاني) من العام ١٩٦٤ (انظر خارطه حملة الجولان)، لمنع إسرائيل من فلاحة المناطق المنزوعة السلاح، التي حُددت بموجب اتفاقيات الهدنة، في مناطق أجلى الجيش السوري إسرائيل عنها. تنقسم هذه المناطق إلى ثلاثة قطاعات رئيسة تبلغ مساحتها حوالي ٥,٦٦ ميلاً مربعاً، تحتوي على أرخبيلات ذات أشكال غير منتظمة -لكل منها اسمه الخاص مثل: ليغيوم (أرض البقوليات) وأنف ديغول- كانت إسرائيل قد ادعت سيادة كاملة عليها. فلم يعترف الإسرائيليون بأية سلطة قضائية للجنة الهدنة المشتركة (ومن ضمنها الممثلون السوريون) على المناطق المنزوعة السلاح، فصرحوا لتأكيد هذا الادعاء أن هذه المناطق محرَّمة على المزراعين السوريين.

ولكن السوريين المعارضين لمحاولات إسرئيل السيطرة على هذه الأراضي كانوا يطلقون النار من مواقعهم المشرفة في هضبة الجولان، على أي جرار يحرث الأرض.

في المركز السطحي لهذه التواترات يقع بحر الجليل (بحيرة طبريا) نفسه الذي يقع بكامله تحت السيادة الإسرائيلية الهزيلة. فهناك شريط بعرض عشرة أمتار على طول الضفة الشمالية الشرقية للبحيرة يَخُصُّ إسرائيل، ولكنه يقع تحت مرمى المدفعية السورية، وبالتالي كان من المستحيل الدفاع عنه. وكان القناصة السوريون

يطلقون النار باستمرار على قوارب صيد السمك الإسرائيلية في حين كانت الدوريات الإسرائيلية تخترق منطقة منزوعة السلاح بعرض ٢٥٠ متراً ممتدة من الشاطئ الشرقي إلى داخل البحيرة.

كانت قضيتا الأرض والماء متشابكتين في العقل الإسرائيلي. إذ كان الإسرائيليون يحاولون منع السوريين من تحويل منبعي الأردن عن طريق تأكيد سيادتهم على المناطق المنزوعة السلاح. قال إشكول لحكومته: «بدون السيطرة على مصادر المياه لا يمكن تحقيق الحلم الصهيوني. فالماء هو أساس الوجود اليهودي في أرض إسرائيل».

ومن الناحية التكتيكية كانت إسرائيل تستغل حوادث المنطقة المنزوعة السلاح كذريعة لقصف مشروع تحويل منبعي الأردن.

تمكنت الدبابات الإسرائيلية من إصابة البلدوزرات السورية على عمق أميال وراء الحدود. ولكن السوريين صعّدوا من مطالبهم فيما بعد.

تعرضت دورية إسرائيلية لنيران سورية في شمال دان (Dan) في ١٣ نوفمبر (تشرين ثاني). فردت المدرعات الإسرائيلية التي كانت مموهة قرب المنطقة على النيران السورية. فقامت المدفعية السورية في هضبة الجولان بقصف المستوطنات الإسرائيلية في وادي الحوله (Hula Valley) بوابل من القذائف. ولكون مدفعية العدو خارج نطاق مدى مدفعية إسرائيل، فكان من الواضح أن تقوم الطائرات بقصف مرابض المدفعية السورية. ولكن إشكول تردد في ذلك خشية نشوب حرب وتعريض محاولات إسرائيل لشراء طائرات أمريكية للخطر؛ فطرح السؤال التالي على إسحق رابين (Yitshak Rabin) الذي كان رئيساً للأركان حينذاك: «هل هي مسألة بضعة ثقوب أخرى في السقف، أم عدم وجود سقف ولا جدران بالمرّة؟».

كان رابين يحبذ ضرب سوريا ضربة حاسمة. وقال موضحاً وجهة نظره: «بفضل انقسام العرب، وعدم وجود احتمال لتدخل السوفيات فإن ضربة انتقامية لسورية لن تؤدي إلى نشوب حرب. إضافة إلى أن انشغال الولايات المتحدة بقصف فيتنام

الشمالية، فإنها لن توجه ضربة مماثلة ضد سوريا. فاقتنع إشكول وقبل بتعليل رابين؛ وهكذا أقلعت طائرات سلاح الجو الإسرائيلي (IAE). (٤٤)

أسفرت المعركة التي دامت ثلاث ساعات عن مقتل أربعة جنود إسرائيليين وجرح تسعة؛ أما المستوطنات فقد تضررت كثيراً. وكانت الخسائر السورية كذلك كبيرة - فقد أصيبت دبابتان على الأقل وعدة آليات أرضية متحركة- بيد أن جرحهم العميق كان حرجاً نفسياً. إذ لم تكن القوة الجوية السورية بمستوى القوة الجوية الإسرائيلية.

وعلى الرغم من إمكانية استمرار أشغال تحويل منبعي نهر الأردن خلال ربيع العام ١٩٦٥ على بعد خمسة أميال خارج نطاق مدى المدفعية الإسرائيلية، فإنه لم يعد بالإمكان مواصلة هذه الأشغال طالما أن إسرائيل سيطرت على الجو. فكان جواب سورية شراء حوالي ستين من الطائرات السوفياتية من طراز ميغ S21 (Mig-21s) السريعة، في حين شرعت بمحاولة جديدة أقل خطورة.

لقد أثبتت الغارات الفدائية الفلسطينية التي استخدمت في مصر في خمسينيات القرن العشرين أنها وسيلة ناجحة لجرح الإسرائيليين، وفي الوقت نفسه تحرز نقاطاً إيجابية لدى الرأي العام العربي. إذ كان تمويل هذه العمليات غير باهظ، ولدى مواجهة الحكومة بالتواطؤ مع الفدائيين تستطيع الحكومة إنكار ذلك خصوصاً إذا انطلقت العمليات من بلدان مجاورة. فلم تكن هناك أية صعوبة في وجه تجنيد المقاتلين من المنظمات الفلسطينية التي كانت تمقت الشقيري ومنظمته العاطلة عن العمل. فالتقت مصالح هذه المجموعات الرافضة مع مصالح سورية في إثارة التوتر مع إسرائيل. فعلى مدار العام ١٩٦٥ قامت العاصفة (al-Asifa) الجناح العسكري لحركة فتح - التي تتلقى دعماً من سورية بتنفيذ ٣٥ هجوماً وفق الحسابات الإسرائيلية، ١١٠ عمليات وفق الحسابات الفلسطينية.

أربكت هذه العمليات عبد الناصر، مرَّة أخرى، بتحدي قيادته لفلسطين، وبتجديد خطر قيام إسرائيل بالرد على هذه العمليات. الأمر الذي سوف يضطر مصر الملتزمة بالقيادة العربية الموحدة إلى الرد عليها - أي بعبارة أخرى، شن حرب ضد

إسرائيل. جاء العمل الفدائي في أسوأ وقت ممكن، حيث كان الجيش المصري غارقاً في اليمن، واقتصاد مصر في هبوط. وأنشأت المملكة العربية السعودية والأردن وإيران جامعة إسلامية بهدف الحد من نفوذ عبد الناصر. فألغى عبد الناصر مشاركته في مؤتمر القمة العربية المقبلة التي كان من المتوقّع عقدها في الجزائر احتجاجاً على هذه الجامعة التي اعتبرها مؤامرة مشتركة بين الولايات المتحدة الأمريكية والإخوان المسلمين. وقال موضحاً موقفه: «بإمكاننا إنهاء إسرائيل في اثني عشر يوماً لو شكل العرب جبهة موحدة. ولا يمكن مهاجمة إسرائيل إلا من.. سوريا والأردن..» ثم أعلن «أنه سوف يحرر فلسطين بأسلوب ثوري تقليدي» وألقى القبض بهدوء على جميع نشطاء فتح في مصر وغزة. (٥٠)

لم يكن عبد الناصر القائد العربي الوحيد الذي يهدده الإرهاب برعاية سوريا. بل سرعان ما أصبح ملك الأردن مهدداً كذلك. فبعد نجاحه في مقاومة خطط القيادة العربية الموحدة لنشر قوات سعودية وعراقية في أرض المملكة الأردنية الهاشمية، إدراكاً منه بأن إسرائيل سوف تتخذ ذلك ذريعة لاحتلال الضفة الغربية، فقد أصبح الآن يواجه موقفاً مماثلاً نتيجة لغارات فتح. إذ كان ينطلق أكثر من نصفها من الضفة الغربية حيث كان الملك حسين يقاوم نفوذ الشقيري الذي اضطر لتشكيل مجموعاته الفدائية لمنافسة فتح. قطع الملك الأردني شوطاً بعيداً لتجميد هذه الأنشطة، ولكنه كان يعرف أن هناك حدوداً لكبح المقاومة الفلسطينة المشروعة، وأن هناك حدوداً لضبط النفس الإسرائيلي. (٥١)

لقد أخبره الإسرائيليون بذلك. إذ كان الملك حسين منذ العام ١٩٦٠ عندما هنأه بن غوريون على نجاته من هجوم بالقنابل رتبته مصر قائلاً: «سوف نستمر يا جلالة الملك في تحدي جميع محاولات نسف القانون والنظام بشجاعة ونجاح»، على اتصال مع ممثلين إسرائيليين من حين إلى حين. كما أحبطت المخابرات الإسرائيلية (Mossad) محاولة أخرى لاغتيال الملك حسين بعد سنتين، كان لمصر ضلع فيها. تابع الملك حسين كجده من قبله هذه المحادثات مع الإسرائيليين بحذر وسرية تامة

في لندن. وعلى الرغم من أنه لم يستجب لجهود إشكول لعقد معاهدة سلام كامل، ورغم عدم ميله للخروج عن الإجماع العربي، فإنه كان منفتحاً باتجاه بعض المعايير العملية، كالتعاون الهادئ على المشاركة في مياه الأردن.

ساعدت الاتصالات على استرضاء الإسرائيليين -والأمريكان شركائهم- أثناء فترة القمم العربية عندما نافست الدعاية الأردنية المناهضة للصهيونية الدعاية السورية بسهولة. إلاَّ أن الدعاية شيء والإرهاب شيء آخر، فأنذر الإسرائيليوّن الملك حسين بضرورة وقف الإرهاب (٥٢) فلم يتوقف، وفي مايو (آيار) من العام ١٩٦٥ بعد مقتل ستة إسرائيليين، ردت قوات الدفاع الإسرائيلية الضربة.

شنت إسرائيل ثلاث غارات انتقامية، على قلقيلية (Qalgilya) والشونة (shuna) وجنين (Jenin) في الضفة الغربية. كانت هجمات ضيقة النطاق بمعايير جيش الدفاع الإسرائيلي، موجهة على المنشآت المائية ومعمل الجليد، ومطحنة الحبوب. ومع ذلك زودت الشقيري بالذخيرة البلاغية التي يحتاجها لمعاقبة حكم الهاشميين «الاستعماري» والمطالبة بإسقاطه كخطوة أولى نحو تحرير فلسطين. فأقسم الحسين «أن يقطع أية يد ترتفع ضد هذا البلد المناضل وأن يفقأ كل عين تنظر إليه بكراهية» واعتقل ٢٠٠ عنصر مخرِّب في الأردن وأغلق مكتب منظمة التحرير الفلسطينية. وأعلن أن «غاية منظمة التحرير الفلسطينية هي تدمير الأردن وكل ما بناه وأنجزه خلال هذه السنين الطويلة لأمتنا ولفلسطين».

وكتب الملك إلى عبد الناصر، ولكن عبد الناصر لم يتعاطف معه، إذ لم يكن راغباً في الدفاع عن ملك رجعي ضد المقاتلين الفلسطينين من أجل الحرية. أما السوريون فقد أدانوا الملك حسين وعبد الناصر كليهما - أدانوا عبد الناصر لفشله في التقدم لإنقاذ الفلسطينين بطرد قوات الطوارئ الدولية، وخوض «الجولة الثالثة» من الحرب ضد إسرائيل (٥٣). وهكذا فقد أثمرت استراتيجية فتح: بفضل إثارة إسرائيل للرد على الدول العربية، وأصبح العرب يهمز بعضهم بعضاً بالتدريج لخوض حرب أخرى.

كان الإسرائيليون يراقبون هذه العملية بشعور متزايد من اليأس - رغم انتصاراتهم المؤثرة في الشمال. فكان إشكول مثلاً يشك في أن العرب سوف ينتظرون العام ١٩٦٧ لكي يضربوا إسرائيل. واحتج ذات مرَّة على تقييم مخابراتي متفائل قائلاً: «حسناً، حسناً، ولكن ماذا لو كانت المخابرات مخطئة؟».

وبما أن طيف هجوم يقوم به العرب كلهم على إسرائيل كان يشكل هاجساً لجيش الدفاع الإسرائيلي، لذلك قام بإعداد خطة دفاعية «السندان» شاملة لصد الهجمات على جميع الجبهات ومن ثم أخذ زمام المبادرة والبدء بالهجوم. ولكن تطبيق الخطة سوف يستغرق سنة أخرى، حتى يونيو (حزيران) من العام ١٩٦٦، وهكذا تبقى الدولة حتى ذلك الحين معرضة للخطر. لقد أصيب إشكول بالهلع عندما علم أن ذخيرة المدرعات لا تكفي إلا ثلاثة أيام من القتال، فأمر بمضاعفتها إلى ستة أيام - وأن ثلث سلاح الجو سوف ينخرط بالضرورة في الهجوم على سلاح الجو المصري. ومما أضاف إلى قلقه اعتقال إيلي كوهين (Eli Cohen) المعروف بالاسم المستعار كمال أمين ثابت (Kamal Amin Thabet) عميل الموساد الذي أدخل نفسه في المراتب العليا من المؤسسة العسكرية السورية.

وبإعدامه في مايو (آيار) فقدت إسرائيل مصدر معلومات لا يُعَوَّض حول انتشار القوات السورية في مرتفعات الجولان، وحول دعم سورية السَّخي لفتح. (٥٤)

كان هناك مصدر قلق أكبر للإسرائيليين هو حالة تحالفهم مع فرنسا. إذا أخذ هذا التحالف يفتر بصورة كبيرة منذ خروج بن غوريون من الحكم وتسلم ديغول سدة الرئاسة في فرنسا، ومنذ انتهاء الحرب الجزائرية وتورط بعض الجنرالات الإسرئيليين في محاولات انقلاب ضد ديغول. وعلى الرغم من أن فرنسا زوَّدت إسرائيل باثنتين وسبعين طائرة ميراج ٣ مقاتلة في العام ١٩٦١، فإن الدفعات التالية أرجئت بسبب سعي فرنسا جعل مسألة السويس جزءاً من الماضي، وإعادة بناء الجسور الشرق الأوسطية. وبحلول العام ١٩٦٥، استقبلت باريس الجنرال المصري، عامر كضيف مكرَّم. (٥٥)

كان الجواب على مصادر القلق هذه يكمن، من وجهة نظر إسرائيل، في الولايات المتحدة، وفي رئيسها ذي النزعة الودية الجيدة. فبعد اغتيال كنيدي، قال الرئيس جونسون لأحد الدبلوماسيين الإسرائيليين، «لقد فقدتم صديقاً عظيماً، ولكنكم وجدتم من هو أفضل منه» ظهرت تلك الصداقة في يونيو (حزيران) من العام ١٩٦٤ عندما كان ليفي إشكول أول رئيس وزراء إسرائيلي يستقبل في البيت الأبيض. إذ طمأن الرئيس ضيفه قائلاً: «إن الولايات المتحدة تقف وراء إسرائيل بصراحة وصلابة في جميع الأمور التي تؤثر على مصالحها الأمنية، تماماً كما تقف وراء جنوب شرق آسيا.. سار الاثنان المتماثلان في السن وفي الخلفية الزراعية على ما يرام. فرد عليه إشكول مبديا ذعره قائلاً: «نحن لا نستطيع أن نخسر. فربما يكون هذا آخر موقف لنا في التاريخ، إن لدى الشعب اليهودي ما يعطيه للعالم. وأعتقد أنك لو نظرت إلى تاريخنا وإلى كل الصعاب التي نجونا منها، فلسوف تستنتج أن التاريخ يريدنا أن نستمر. ولا نستيطع البقاء إذا ما عانينا ثانية ما حدث لنا على يد هتلر.. وأعتقد أنك ستفهمنا. (٥٦)

فهم جونسون ومنح إسرائيل مساعدات مدنية بقيمة ٥٢ مليون دولار، أما المساعدات العسكرية فتلك حكاية أخرى. فبيعت مدرعات باتون م-٤٨ (Pattom M-٤٨) إلى إسرائيل بطريقة غير مباشرة من خلال ألمانيا، لقاء صفقة مدرعات مماثلة إلى الأردن - بالإضافة إلى ٤٨ طائرة مقاتلة من طراز سكاي هوك (Sky Hauk) تسلَّم في ديسمبر (كانون أول) من العام ١٩٦٧ . ولكن ألمانيا خضعت للضغوط العربية وأوقفت بيع السلاح لإسرائيل، بينما حصلت مصر على قاذفات بعيدة المدى من الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي يعني ضرورة تسلُّم إسرائيل للطائرات الأمريكية على الفور. في حين تضاعفت مبيعات السلاح الأمريكي للشرق الأوسط في عهد إدارة جونسون، من ٤٤,٢ مليون دولار إلى ٩٩,٣ مليون دولار، فإن حصة إسرائيل من هذه المبيعات كانت ضئيلة. فقد ورد في مذكرة مشتركة في فبراير (شباط) من العام ١٩٦٢ «أن نية الولايات المتحدة تجاه

إسرائيل طيبة، وترغب في أن تمتلك سلاحاً رادعاً فعالاً». ولكن جونسون رفض أن تكون الولايات المتحدة المورِّد الأساسي لإسرائيل. (٥٧)

يعد رفض جونسون هذا انعكاساً لعزوف أمريكا التقليدي عن وقوفها كليا مع طرف دون آخر في الصراع العربي - الإسرائيلي، أو أن تقع في شرك سباق التسلح في الشرق الأوسط. وأكثر من ذلك كان جونسون مشغولاً بحرب فيتنام ومعارضتها في الداخل، اللتين كانتا تتصاعدان معاً. (٥٨) فلم تكن الولايات المتحدة قادرة على إلزام نفسها في أية منطقة أخرى من العالم، ولا على مواجهة أخرى مع السوفيات، كما أكد جونسون نفسه. فولد إدراك هذه الحقيقة عزاء بسيطاً لدى إشكول، خصوصاً وأن السوفيات كانوا يزودون الفيتناميين الشماليين والعرب كليهما بالسلاح.

كان لدى رئيس الوزراء الإسرائيلي، مشاكله الداخلية، أيضاً. إذ مازال بن غوريون يترنح بسبب استقالته من منصب رئاسة الوزارة، وتأكد في النهاية أن إشكول لم يكن مجرد بديل مؤقت له. فشكل مع معاونيه بيريز (Peres) ودايان (Dayan) حزبه الخاص المنفصل، رافي (Reshimat Poalei Israel] (Rafi قائمة العمال الإسرائيليين) الذي كان أداؤه ضعيفاً في انتخابات أكتوبر (تشرين أول) للعام ١٩٦٥. ولكن إذا فشل حزب رافي في تسلم السلطة، فإنه نجح في إحداث تآكل في أكثرية حزب ماباي (Mapai) وإرهاق زعيمه، بل سَبَّب له نوبة قلبية. وشفي إشكول ليواجه كساداً اقتصادياً نشأ عن انخفاض مستوى الهجرة وانتهاء التعويضات الألمانية. فارتفعت البطالة بصورة مفاجئة إلى ١٢,٤٪ وانخفض معدل النمو السنوي إلى ١٪. وبدأ الإحساس بالفتور الوطني ينتشر بين الشباب الإسرائيلي بوجه خاص، لأول مرَّة منذ أيام العام ١٩٤٨ الكالحة. (٥٩)

كل ذلك حدث والوضع الأمني يسير من سيئ إلى وضع لا يحتمل. ففي غضون العام ١٩٦٦ سجلت إسرائيل ٩٣ حادثة حدودية - ألغام، إطلاق نار، تخريب - في حين تباهى السوريون بخمسة وسبعين هجوماً فدائياً في شهر واحد خلال فبراير-مارس (شباط وآذار). (٦٠) وفي هذين الشهرين شهدت دمشق حكومة جديدة -عن

طريق العنف- إذ أقام الجنرال جديد (Jadid) وقائد سلاح الطيران حافظ الأسد (Hafez al Assad) نظاماً بعثياً أكثر راديكالية من النظام السابق. كان هذا النظام المؤلف في غالبيته من العلويين، الطائفة الابتداعية المكروهة من الأكثرية السنية، يفتقر إلى الدعم الشعبي ويتملكه الخوف من عبد الناصر. يكمن الدواء الشافي لهذه المشكلات في اصطناع أعداء مثل الرجعية العربية والإمبريالية الغربية، رغم أن كليهما ليسا بأسوء من الصهيونية:

«تعد القضية الفلسطينية محور سياساتنا المحلية والعربية والدولية.. ولا يمكن أن يخوض معركة التحرير سوى القوى العربية التقدمية عن طريق حرب التحرير الشعبية التي أثبتت أنها السبيل الوحيد للانتصار على القوى الرجعية.. وستظل السبيل النهائي لتحرير الوطن العربي بأكمله ولتحقيق وحدته الشعبية الاشتراكية الشاملة». (٦١)

أوصل آخر انقلاب بعثي إلى القمة نهجاً كان قد بدأ في العام ١٩٦٤ عندما حاول الحكام السوريون اكتساب الهيبة لمنافسة مصر والأردن وتغطية عدم الأمن في الداخل، وذلك عن طريق القيام بعمليات قتالية ضد إسرائيل. لقد فشلت هذه الخطة عندما أحبط جيش الدفاع الاسرئيلي محاولة تحويل منبعي الأردن والسيطرة على المناطق المنزوعة السلاح. فالتفتت دمشق عندئذ إلى الغارات الفلسطينية التي كان لها منافع ثلاث: إلحاق الأذى بإسرائيل، وإلحاق الخزي بعبد الناصر، وإضعاف الحسين. لم يكن لاحتمال أن تؤدي هذه الغارات إلى تأكيد تقدير إسرائيل بأن العرب يعدون لخوض حرب ضدها ذا أهمية بالنسبة للسوريين الذين كانوا يرون أنهم لن يخسروا شيئاً بسبب الحرب التي ستسفر إما عن هزيمة إسرائيل أو هزيمة منافستيهما: مصر والأردن. فلن يصيب سوريا أي أذى التي يحميها تحالفها الراسخ مع الاتحاد السوفياتي.

لقد استثمر السوفيات، في واقع الأمر أموالاً طائلة في الشرق الأوسط ـ حوالي ٢ بليار دولار كمساعدات عسكرية فقط ١٧٠٠ دبابة، و٢٤٠٠ قطعة مدفعية، و ٥٠٠ طائرة، ١٤٠٠ مستشارا ـ منذ العام ١٩٥٦، كانت حصة مصر منها حوالي ٤٣٪. ففي

المفهوم السوفياتي كان عبد الناصر «الثوري الديمقراطي اللارأسمالي» أملاً لهزيمة الغرب في أعقاب أزمة الصواريخ الكوبية. لن يخيب أمل موسكو. فعندما نشبت الحرب في جنوب شرق آسيا جرى التفاف على حلف الناتو من الجنوب وتهدد مصدرهم النفطي من قبل الأنظمة العربية الموالية للسوفيات. وهكذا منح عبد الناصر وعبد الحكيم عامر لقب بطلي الاتحاد السوفياتي في العام ١٩٦٤، وهي جائزة لم يحظ بها أجنبي من قبل.

كان هذا السخاء السوفياتي في المنطقة يعد مصدر شقاق. إذ لم يتفق قادة الحزب والجيش في تقييمهم للصفات العربية كجنود وانفتاح على الأفكار الماركسية. حتى إن بعض المراقبين يربطون خروج خروتشيف من السلطة في أكتوبر (تشرين أول) من العام ١٩٦٤ بخيبة الأمل الناجمة عن فرط كرمه تجاه مصر. ومع ذلك لم يكن الذين حلوا محله، وهم الثلاثي: رئيس الوزراء أليكسي كوسيجن (Alexei Kos-ygin)، والرئيس نيكولاي بودغورني (Nikolai podgorny) والأمين العام للحزب الشيوعي ل.أ بريجنيف (Brezhnev. T. L) بأقل عطاء من سلفهم. إذ قالوا للمشير عبد الحكيم عامر أثناء زيارته لموسكو بدعوة من القيادة السوفياتية: «سنعطيكم كل شيء حتى الأسلحة السرية» فرد عليهم قائلاً: «ولسوف نحفظ تلك الأسرار». (٦٢)

بلغ الكرم السوفياتي درجة لم يسبقهم إليها أحد من قبل في أعقاب ثورة البعث في سوريا. وخلافاً لما هو الحال في مصر حيث كان الحزب الشيوعي محظوراً غير شرعي، والعلاقات مع السوفيات بسبب ذلك كانت معقدة، فإن النظام الجديد في سورية تضمن لأول مرَّة الشيوعيين السوريين. فانهالت المساعدات على سورية ـ فقد بلغت في العام ١٩٦٦ وحده ٤٢٨ مليون دولار ـ فتجددت البنية التحتية لسوريا، ومُوِّل مشروع إنشاء سد الفرات الذي كلف أكثر من السد العالي في أسوان. وأصبحت اللغة الروسية تدرس في المدارس كلغة ثانية. ومع ذلك قامت العلاقات السورية السوفياتية على أكثر من الأساس الايديولوجي. إذ إن سياسة العالم الثالث، التي كانت تعد نجاحاً باهراً للسوفيات، قد أخذت تعاني من انتكاسات خطيرة لدى

الإحاطة بسو كارنو (Sukarno) في إندونيسيا ونكروما (Nkruma) في غانا (Ghana)، وانتشار النفوذ الصيني في آسيا وإفريقيا. فكانت سوريا هي التعويض عن هذه النكسات. (٦٣)

بدت موسكو ودمشق متفقتين تماماً في كل القضايا الهامة، فيما عدا القضية الفلسطينية. فبالرغم من طعن السوفيات للصهيونية وإدانتهم القاسية لإسرائيل، فإنهم دائماً يعترضون على استخدام العنف. إذ لم تكن إثارة الحرب في الشرق الأوسط المحاذي لحدود السوفيات الجنوبية، ضد الأسطول السادس الأمريكي الموجود في شرقي البحر المتوسط قريباً من الاتحاد السوفياتي من ضمن اهتمامات القادة السوفيات. فقد عارض زعماء الكرملين (Kremlin) محاولات سورية تحويل منبعي الأردن، وطرحوا بدلاً من ذلك إجراء محادثات سلام على أساس خطة التقسيم. ولكن هذا الموقف أخذ يضعف رويداً رويداً بحلول منتصف العام ١٩٦٦. فقد صدر بيان مشترك سوري- سوفياتي إثر قيام وفد سوري على مستوى عال بزيارة موسكو، وصفت إسرائيل فيه بأنها «ترسانة عسكرية وقاعدة للعدوان والابتزاز ضد.. الشعب العربي»، ووعد الوفد السوري بدعم كامل سوفياتي للعرب «في قضيتهم العادلة ضد الصهيونية الاستعمارية». (٦٤)

ربما يكون هذا التحول في السياسة السوفياتية قد نشأ عن صراعات داخلية - فالمارشال أندرية أنتونوفيتش غريشكو (Andrei Antonovich Grechko) نائب وزير الدفاع، كان يلعب لعبة السلطة بدعم من بريجنيف، فكان بحاجة إلى استعراض عضلات - أو من رغبة في استغلال انغماس أمريكا في فيتنام. فكانت النتيجة، على أية حال، حتمية في ذلك الربيع عندما وسعت سورية المحصنة دعمها للهجمات الفدائية ضد إسرائيل. فقد خاطب الدكتور نور الدين الأتاسي، الرئيس السوري الصوري، الجنود السوريين الموجودين على خط الجبهة مع إسرائيل قائلاً: «إننا نريدها حرب تحرير شعبية بكل ما في الكلمة

من معنى لتدمير القاعدة الصهيونية في فلسطين. لقد حان الوقت لاستخدام هذه الأسلحة للغرض الذي صنعت من أجله». (٦٥)

كان من المتوقع من إسرائيل التي تم تحديها هكذا أن ترد مباشرة على سوريا. فلدى إسرائيل المقدرة العسكرية، بالتأكيد، والدعم الأمريكي الضمني. ولكن خطر إشعال مواجهة أوسع تلعبها سورية وتثير السوفيات كان يطغى على هذه الميزات. إذ كان إشكول كغيره من أبناء جيله الأوربيين الشرقيين يعرف الروس ويخشاهم. لذلك كانت الحرب مع سوريا مجازفة كبيرة وربما تكون انتحارية بفضل دعم الاتحاد السوفياتي. (٦٦)

ظهر عدم استقرار العلاقات السوفياتية - الإسرائيلية جليا في ٢٥ مايو (آيار) من العام ١٩٦٦ عندما أخبر وزير خارجية الاتحاد السوفياتي السفير الإسرائيلي، كاتريل كاتز (Katriel Katz) بخطة صهيونية لغزو سورية قائلاً: «إن جيش الدفاع الإسرائيلي، وأسلحة الامبريالية والاستعمارية السرية في الشرق الأدنى تحتشد على الحدود الشمالية».

إن إنكار كاتز وإشكول العميق الذي أبلغاه إلى سفير الاتحاد السوفياتي في تل أبيب، شوفا خين (chuva Khin) وتأكيدات إسرائيل باحترام وحدة الأراضي السورية وسلامتها، لم تثن السوفيات عن رأيهم هذا. لقد ظهرت هذه الأزمة في وكالة الأنباء السوفياتية، تاس (Tass) بعد يومين، فأخذت تطبل وتزمّر قائلة: «لقد آن آوان الكشف.. كبرهان على تضامن السوفيات مع البلدان العربية في نضالها ضد.. القوى الأجنبية والرجعية المحلية». بيد أن إسرائيل قد أخذت الرسالة مأخذ الجد فغدت عصبية المزاج بشأن استفزاز السوريين، حتى ولو بطلعات استطلاعية للطيران الإسرائيلي فوق الأراضي السورية. (٦٧)

ظلت الضفة الغربية هي الهدف الدائم الوحيد لإسرائيل. إذ نفذ جيش الدفاع الإسرائيلي ضربتين هناك في منطقة الخليل -حيث قتل ثمانية مدنيين- وجرى تبادل إطلاق النار مع الفيلق العربي الأردني.

ربما أدت هذه العمليات إلى تلطيف انتقادات إشكول ولكنها لم تردع دمشق. استمر القصف المدفعي، ومن المدرعات على طول الحدود عندما استأنف السوريون أعمال التحويل خارج نطاق المدى الإسرائيلي وكثفوا قصفهم للمستوطنات الإسرائيلية، ومرَة أخرى، لم يجد رابين بُداً من استدعاء سلاح الجو الاسرئيلي للقيام بغارات في ٧ يوليو (تموز) فأسقط طائرة ميغ سورية.

لم يتأخر الرد السوري. فعندما جنح قارب دورية إسرائيلي على شاطئ بحيرة طبريا الشرقي في المنطقة المنزوعة في ١٥/ أغسطس (آب)، أرسلت سوريا طائراتها لضرب القارب. كان الغرض من هذا الهجوم «إثبات عدم صحة تفوق سلاح الجو الإسرائيلي» كما قال حافظ الأسد؛ أصيبت طائرتا ميغ وهوتا مشتعلتين. ولكن رجال المدفعية السورية منعوا قوات الدفاع الإسرائيلية من إنقاذ القارب الذي تَمَّ إنقاذه بصعوبة فائقة أثناء الليل. (٦٨)

ومع ذلك استمرت الغارات الفسطينية التي أصبحت تعزى الآن إلى حوالي ٢٦ مجموعة فدائية تحمل أسماء مثل «شباب الثأر» و«أبطال العودة» (Youths of Revenge and Heroes of Return). لقد انصب جام غضب إسرائيل، ثانية، على الأردن حيث قام مظليون من جيش الدفاع الإسرائيلي بنسف ٢٨ منزلاً في قرية رافات (Rafat) شمال الضفة الغربية وقتلوا أحد عشر مدنيا. لم يشف هذا العمل الانتقامي غليل رابين، على أية حال. فحذر من مخاطر إضعاف الملك حسين، وأصر على ضرورة ضرب مصدر الإرهاب -سوريا- ضربة شبيهة بحملة سيناء. وسوف يكون التوقيت مثاليا طالما أن المصريين مشغولين في اليمن، والعالم العربي منقسم على بعضه. قال رابين لمجلة الجيش الإسرائيلي، باماهان (Bamahane) في ٩ سبتمبر (أيلول): «ينبغي أن يوجه الرد على الأعمال السورية، سواء كانت إرهاباً، أو تحويلاً، أو عدواناً على الحدود، إلى مرتكبي الإرهاب والنظام الذي يدعمه. إذا إن المشكلة مع سوريا، أساساً، هي الصدام مع القيادة».

أغضبت هذه الملاحظات إشكول الذي كان يخشى أن يؤدي مثل هذا الهجوم إلى إقحام السوفيات وتوحيد العرب كلهم في حرب ضد إسرائيل. فحذر قائلاً: «سوف تقصف المدن، بما فيها مفاعل ديمونة».

ولام رابين بقسوة قائلاً: «ينبغي ألا تتدخل إسرائيل في الشؤون الداخلية لسورية. بدلاً من مهاجمة سورية، مباشرة اقترح رئيس الوزراء طريقاً غير مباشرة عن طريق تحديد خدمة العلم الإجبارية ستة شهور، وإدانة الجرائم السورية في مجلس الأمن. فبدلاً من أن تعزز زيادة مدة الخدمة الاجبارية المعنويات العامة، أسفرت عن انهيار هذه المعنويات، إضافة إلى أن محاولات إدانة سورية في مجلس الأمن كان يحبطها الاتحاد السوفياتي باستخدام الفيتو».

أما في دمشق فكانت لهجة رئيس الوزراء، يوسف زعيّن عدوانية تماماً، إذ صرح قائلاً: «لم نأت لنكبح الثورة الفلسطينية.. بل سوف نشعل المنطقة ناراً وأي حركة تقوم بها إسرائيل ستؤدي إلى قبرها». (٦٩)

كانت الأحداث تتصاعد، ليس فقط فيما يتعلق بإسرائيل؛ بل مصر كذلك كانت تنظر برعب إلى الحملة السورية لجر المنطقة إلى الحرب. وقد ذكر تقرير وزارة الخارجية الأمريكية الذي رفع إلى الرئيس جونسون (٧٠) يقيم الوضع في المنطقة «أنّ عبد الناصر ربما يشجب إسرائيل بعنف أو ينفجر ضدها، ولكننا لا نرى أي احتمال لقيام عبد الناصر بشن هجوم على إسرائيل، أو القيام بعمل يستفزها في المستقبل المنظور».

لقد اشتركت إسرائيل ومصر في كبح جماح السوريين، رغم أن مثل هذا التعاون يبدو مستحيلاً.

وافق عبد الناصر، اعترافاً منه بهذا التقارب، على تجديد الاتصالات السرية بين مصر وإسرائيل للمرَّة الأولى بعد أزمة السويس. جرت الاتصالات عبر رئيس الموساد مئير أميت (Meir Amit) والجنرال عزم الدين محمود خليل، رئيس مشاريع

الأسلحة المصرية غير التقليدية، الذي كان يكتب تقاريره مباشرة إلى عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.

والتقى الاثنان، بفضل وسيط يعرف فقط باسم ستيف (Steve)، سرًا في باريس وبحثا ترتيبات متطابقة، في واقع الأمر، مع تلك التي طرحت في خمسنيات القرن العشرين: مساعدة إسرائيل مصر في الحصول على مساعدات عالمية مقابل تخفيف حملة الدعاية المعادية لإسرائيل في مصر، وتخفيف الحصار على مرور السفن الإسرائيلية في قناة السويس. وعرض المصريون كذلك إطلاق سراح اليهود المتهمين بالتجسس في العام ١٩٥٤ لقاء تلقي ٣٠ مليون دولار كقرض من إسرائيل. وذهب خليل إلى أبعد من ذلك، إذ وجه دعوة لآميت لزيارة القاهرة في يونيو (حزيران) من العام ١٩٦٦، بيد أن إشكول ألغى الفكرة راغباً عن ضمان سلامة نتائج وجود أعلى مسؤول في قوات الأمن السرية الاسرائيلية مع عبد الناصر. وبعد ذلك أغلق المصريون قناة الاتصال هذه كليا خشية أن يفتضح أمرها بين العرب الراغبين في الانتقاص من قدره. حاول الإسرائيليون إعادة فتح قناة الاتصال هذه ثانية، بعد سنة تماماً، في خضم محنة أكثر ظلاماً من سواها. (٧١)

ربما تساعد الاتصالات السرية على تهدئة الإسرائيليين، أما تهدئة السوريين، فلها مسالك درامية أخرى. اقترح عبد الناصر عقد معاهدة دفاع مشترك مع سوريا، الأمر الذي يعزز مقدرة سوريا على إغراء مصر لخوض صراع، ويمكن مصر، في الوقت ذاته، من الحد من قدرة سورية على المناورة، وهو أهون الشرين. فضلاً عن أن الزعماء السوريين كانوا ميالين لهذه الفكرة، بعد سقوط الطائرات السورية، وذهولهم لاكتشاف محاولة انقلاب بقيادة الرائد سليم حاطوم الدرزي، وبعد حملة التطهير في هيئة الضباط. وبالتالي لن يكون الاتفاق مع أقوى دولة عربية أسوأ سبيل لتدعيم النظام.

بدأت الخطوة الأولى في أواسط اكتوبر (تشرين أول) من العام ١٩٦٦ بقدوم وفد عسكري مصري إلى دمشق، حيث صرح رئيسه الجنرال سعد علي عامر قائلاً: «إننا

واثقون بأننا نسير خطوات واسعة باتجاه تحقيق هدفنا المشترك - ألا وهو الوحدة العربية الكاملة وإزالة إسرائيل». ثم قام زعيّن بزيارة متبادلة إلى القاهرة. وهناك قال عبد الناصر لرئيس الوزراء السوري يوسف زعينّ في الثاني من نوفمبر (تشرين ثاني): بأن ما توصلت إليه إسرائيل من تقدم تكنولوجي، وما تحصل عليه من مساعدات أمريكية يجعلها غير معرضة لخطر هجوم عربي. ومع ذلك، عندما احتج زعين قائلاً، إذن على العرب أن ينتظروا مئة سنة، طمأنه عبد الناصر بقوله: «عليك ألا تنتظر مئة سنة ولا خمسين، بل عليك أن تعلم أنك لا تستطيع تحقيق هدفك إلا بامتلاكك إلى مدفع بعيد المدى». (٧٢)

وُقعت معاهدة دفاع مصرية - سورية بعد يومين، واستعيدت العلاقات الدبلوماسية والعسكرية بين البلدين والتزم كل طرف بنجدة الآخر في حال نشوب معركة. واشترطت الملاحق السرية لهذه المعاهدة أن تهب مصر لمساعدة سورية في حال قيام إسرائيل بهجوم على الجبهة الشمالية وأعلن وزير الخارجية السوري، إبراهيم ماخوس أن «سلاحي الجو المصري والسوري يحلقان الآن في سماء واحدة». وكانت هذه المعاهدة فرصة لقطع التحالف الضمني الذي كان قائماً بين مصر والأردن على قاعدة معارضة سوريا، وشرعت إذاعة سورية وإذاعة صوت العرب القاهرية بهجوم متناغم على الملك حسين والحط من قدره ووصفه بأنه رجعي وعميل للاستعمار والصهيونة وأداة بأيديهما، واعدين إياه بمصير كمصير نوري السعيد رئيس وزراء العراق الذي اغتيل بانقلاب عسكري. (٧٣)

ولكن إذا اعتقد عبد الناصر بأنه يهدئ السوريين بالحديث عن حرب في المستقبل غير البعيد، فإن الأحداث أثبتت خطأه. إذ وقعت سبع غارات فدائية على إسرائيل، خرج معظمها من الأردن، في تعاقب سريع قتل فيها سبعة إسرائيليين وجرح اثنا عشر. قال إشكول للجنرالات الذين كانوا يطالبونه بضرورة الرد مطمئنا إياهم بأن أياً من القتلى لن يُنسى ولسوف ينتقم له قريباً: «دفتر الملاحظات مفتوح واليد تكتب» ولكنه رجا أمريكا أيضاً أن تتدخل لدى سوريا والأردن، مذكراً السفير

الأمريكي ولورث (وإلي) باربر (Walworth (Wally) Barber) قائلاً: «هناك جمهور لابد من أن يحسب حسابه. أريدك أن تعلم أن الوضع ربما يسفر عن صدامات. وربما نضطر أحياناً ألى القيام بعمل بعد التفكير فيه أكثر من مرَّة». رفض رئيس الوزراء الاسرائيلي تقييم رئيس المراقبين التابعين للأمم المتحدة، الجنرال النرويجي، أودبول (OddBull) بأن الملك حسين يبذل قصارى جهده في منع التسلل المعادي لإسرائيل.

فبموجب تقارير المخابرات الاسرائيلية، كان الملك يعتقل الإرهابين ثم يطلق سراحهم في اليوم التالي. (٧٤)

في العاشر من نوفمبر (تشرين أول) انفجر لغم سيارة شرطة شبه عسكرية تقوم بالقتل والاغتيال ملحقة بالجيش عند الحدود الاسرائيلية المقابلة لمدينة الجليل في الضفة الغربية. قتل ثلاثة منهم وجرح واحد. فكتب الملك حسين رسالة تعزية إلى إشكول مدركاً ومتحسباً لغضب إسرائيل، أكد فيها التزامه بالحفاظ على أمن إسرائيل. بعث بها إلى السفير الأمريكي في عمان الذي بعث بها بدوره إلى باربر في تل أبيب. كان باربر، طويل القامة، المصاب بمرض الربو، المهيب، الأعزب طيلة حياته، المتعاطف مع إسرائيل تعاطفاً لا يخبو، يُعَدُّ من أكفأ السفراء. ولكنه انزلق الآن. إذ بدلاً من أن يبعث بالرسالة فوراً إلى مكتب رئيس الوزراء، وضعها على مكتبه.

كان ذلك اليوم هو الجمعة، فاعتقد أن الرسالة يمكن أن تنتظر إلى ما بعد عطلة نهاية الأسبوع طالما أنه لا شيء يدعوا إلى السرعة. (٧٥)

ولكن إسرائيل كانت قد قررت توجيه ضربة في عطلة نهاية الأسبوع. لم تكن ضربة محدودة، بل كانت واسعة النطاق، حدثت في وضح النّهار بغطاء جوي. قال رئيس العمليات في جيش الدفاع الاسرئيلي عيزر وايزمن (Ezer Weizman)، مؤكداً «إننا لا نستطيع تنفيذ غارة انتقامية في العام ١٩٦٦ بالطريقة ذاتها التي اتبعت في العام ١٩٥٥». «معللاً بذلك اتساع نطاق هذه الضربة. وافق تبقى كما هي إيبان وزير الخارجية حينذاك والمعروف بالهدوء على هذه الضربة، وكذلك معظم الوزراء. إذ

لابد من أن تسترد إسرائيل قدرتها على الردع دون إثارة حرب. ولدى سؤال إشكول عن سبب توجيه الضربة إلى الأردن وليس إلى سوريا أجاب قائلاً: «لقد توصلنا إلى قرار بأن مسؤولية تلك الأعمال لا تقع على الحكومات ذات الصلة فقط، بل على الشعب الذي يوفر مأوى لهذه العصابات». وعبر عن أمله أن لا تقع إصابات بين المدنيين، وألا تحدث صدامات مع الفيلق العربي الأردني. (٧٦)

أثيرت، بعد ذلك، أسئلة عديدة منها: هل كان إشكول سيتخذ القرار نفسه لو تسلم اعتذار الملك حسين في حينه، هل سيتغير مجرى الأحداث لو لم يتأخر باربر هذا التأخر المأساوي في إرسال كتاب الملك؟

هناك أسئلة عديدة يمكن أن تطرح.

بيد أن التطورات التي حدثت في الشهور الستة التالية، لا يمكن أن تنسب إلى شخص بعينه أو حادثة معينة. إذ كانت تنشأ من سياق أو بيئة اكتملت بحلول نهاية العام ١٩٦٦. فالصراع بين البلدان العربية والإسرائيليين، وبين البلدان العربية نفسها، وبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، - يفاقمه التوتر المحلي في كل بلد- قد خلق جوا شديد القابلية للاشتغال. ففي مثل هذا الجو لا يحتاج إطلاق عملية تصعيد خارجة عن السيطرة، أو سلسلة تفاعلات من الجرأة والجرأة المضادة، أو من المقامرة وسوء الحساب، فكلها تؤدي حتماً إلى نشوب حرب لا رحمة فيها.